

أحمد الصافي النخعي

زهير المارديني



SCANNED BY
JAMAL HATMAL

حكايات مع الأدباء

أحمد الصافي النجفي

زهير المارديني



RIAD EL-RAYES
BOOKS

رياض الريس للكتاب والنشر

56 KNIGHTSBRIDGE LONDON SW1X 7NJ

تمهيد

إن شخصية احمد الصافي النجفي من الشخصيات الاثيرة لديّ، لأنها تمسّ القلوب مسّاً رقيقاً، فهو يتخذ لنفسه اسلوباً فريداً جميلاً لم يسبقه إليه احد من الشعراء.

وهو يغوص في اعماق المجتمع الذي نعيش فيه.. فلا كبر ولا استعلاء، ولا شموخ ولا كبرياء.. إنما هو اسلوب عربي يحسّ الامّ بني قومه، ويعبر عن آمالهم، وما يجيش في نفوسهم من رغبات وامنيات.

وهو شاعر يدعو إلى شعر قومي يعبر عن روحنا القومية، ويفصح عن امانينا الوطنية، ولا يسير في ركب التيارات الأجنبية الوافدة، ولا المبادئ المستوردة من الخارج.

والصافي فوق هذا كله شاعر ساخر يرقى بالسخرية إلى أرقى مدارجها، ويعلو بها إلى مراتبها.

لقد برع الصافي في ميدان النكتة براعة فائقة، وكان واسطة العقد بين هؤلاء الظرفاء الذين ملأوا دنيانا مرحاً وظرفاً حتى الخمسينات من هذا القرن، ومنهم: محمد مصطفى حمام، والدكتور محمد صبحي أبو غنيمة، ورثيف الخوري، وفخري البارودي.

ولقد دارت بين الصافي وهؤلاء الأدباء الظرفاء مساجلات ربما وجدت لها مكاناً في سياق البحث، وهي مساجلات تلمّ بالبيئات الأدبية التي عاش فيها الصافي، وتأثر بها خلال الجلسات الطويلة التي كانت تلتئم في المقاهي.

فلم تكن المقاهي اماكن للعبث في هذه الفترة من التاريخ، إنما كانت

مجمعاً لاهل الفكر والادب بعدما ضاقت البيوت عن استيعاب الاحباب
والاصحاب، واستضافة الاصدقاء والخلان

فقد كانت البيوت الثرية في دمشق يوم ولد إليها الصافي عام ١٩٢٠
مفتوحة الابواب لاهل الظرف والادب، ومنها دارة المناضل الشعبي فخري
البارودي في (القنوات)، ودارة الدكتور صبحي ابو غنيمه في (عرنوس)،
ومنزل مصباح بابيل في (المهاجرين)، ودارة الشيخ صالح مسدي في
(الكلاسة - العمارة) - جدي لوالدتي - ففي هذه الدور كانت تعقد
الندوات الادبية وتنظم اساليب النضال ضد الاجنبي المستعمر، وتؤلف
الاحزاب الوطنية لقيادة النضال.

ففي دارة جدي التي ولدت فيها كنت ارى العديد من المجاهدين
يتحلقون، ويدرسون ويرسمون الخطط لمقاومة المحتلين في ارجاء الوطن
العربي.. فعلى هذا النحو كان يجلس الزعيم الدكتور عبد الرحمن
الشهبندر، وإلى جانبه كان يجلس سلطان باشا الاطرش، وجميل مردم بك،
وشكري القوتلي، وسعد الله الجابري، وإبراهيم هنانو، وسعيد حيدر،
وحسن الحكيم.. وفي منزلنا، وفي اول ان اتفق الشهبندر، وسلطان باشا
الاطرش على القيام بالثورة السورية عام ١٩٢٥، وفي هذه الدارة جمع
(١٥٠٠) ليرة عثمانية لتمويل الثورة منها (٥٠٠) ليرة عثمانية ذهباً
جلبها لطفي الحفار من الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين. وإلى هذه
الدارة لجأ العديد من المناضلين يخشون من الانتظار، فقد كان جدي
الشيخ صالح مسدي متولياً على المسجد الاثري بعرف على إدارة اوقاف
المسجد، وبهذه الصفة الدينية البعيدة عن الشبهاء وعيون المحتل
استطاع حماية العديد من الوطنيين الذين لجأوا اليه وظلوا في داره
قاربة الشهور الستة قبل تأمين إيصالهم إلى الأردن والعراق عبر
الصحراء، ومن هؤلاء:

الدكتور عبد الكريم العائدي، وشفيق سليمان، وابو الهادي اليافي،
وفخري البارودي.

كان الشاعر احمد الصافي النجفي يأتي إلى دارنا باستمرار لزيارة
قريبه اديب خان مسدي شقيق الملكة ثريا التي قادت مع زوجها الملك
امان الله خان ملك الافغان السابق، اول ثورة حقيقية في الشرق ضد
الإنكليز. وكانت النتيجة ان فقد الملك امان الله خان عرشه وبقي ملكاً
يومئذ في الجبال هرباً من الإنكليز الذين قاموا بانقلاب

عسكري ضده، بقيادة سائس الخيل باجه سقا اول انكشاري عسكري في الشرق قاد الثورة ضد الملك مستعيناً بالجيش الإنكليزي. وامضى امان الله وزوجته واولاده بقية حياتهم في العاصمة الإيطالية.

كنت ما ازال يافعاً في اواخر الحرب العالمية الثانية، حين ألقت السلطات الفرنسية القبض بإيعاز من الإنكليز الذين احتلوا دمشق، على قريبي اديب خان مسدية شقيق الملكة ثريا، ووضعته في سجن المية ومية -جنوبي لبنان-، وحدث ان وصل المفوض السامي الفرنسي الجديد الجنرال بيرنز إلى دمشق وعلم بالنبا، فاصدر امره بإطلاق سراح اديب خان الذي سبق ان عرفه يوم كان طالباً في برلين، وكان اديب خان سفيراً لأفغانستان في العاصمة الألمانية.

جاء الجنرال بيرنز إلى منزلنا لتهنئة صديقه اديب خان بعد الإفراج عنه، وصادف اثناء هذه الزيارة وجود الشاعر احمد الصافي النجفي في المنزل. وكان من الطبيعي بعد التعارف ان يتناول الحديث الشعر العربي، فقد كان الجنرال شاعراً كما قدم نفسه.

أظهر المفوض السامي خلال الحوار انه من قصيدة الشاعر بدوي الجبل التي أطلقها إثر احتلال الألمان لباريس وقوله:

إنني لأشمت بالجبار يصرعه طاغ ويرهقه ظلماً وعدوانا

يومئذ قمت بترجمة هذا البيت للجنرال بيرنز. وعند سماعه ارتجل الصافي النجفي أبياتاً من الشعر وطلب مني ترجمتها للجنرال، وفيها يقول:

يا دولة قد شقينا بها على حلفتها
بالأمس منها بكينا واليوم فبكي عليها

فإذا بالمفوض السامي الفرنسي يستل من جيبه دفترأ صغيراً ويسجل عليه أبيات الصافي شاكراً له عاطفته العربية الصداقة (الجنرال بيرنز قتل في حادثة سقوط طائرته اثناء سفره إلى باريس). وصفوة القول إن هذه الأبيات المرتجلة تدل على ان الصافي كان شاعراً حريصاً على عروبوته متمسكاً بالأخلاق العربية ونبيلها، فهو لم يشمت باندحار فرنسا، ولكنه اشفق عليها، فبكى منها وعليها.

وهذا يدل على ان الصافي لم يكن شاعراً ارسطوالياً يعيش في اكفاف القرف، ويتنقل بين اعطاف البذخ، إنما كان شاعراً يعيش مع الشعب،

ويعبر عن آلام الشعب، ويفصح عن آمال الشعب. لا يرضيه الظلم فهو يثور، ويطالب برفع الظلم عنه، وكف يد البطش عن امته، حتى تستطيع هذه الأمة ان تنعم بالحرية، وتنفض عنها اغلال المرض، واصفاد العوز والفاقة.

وهو اثناء ذلك كله ينقد العادات البالية التي تعرقل حركة النمو في المجتمع العربي، وتنفث في بيئاتنا وتنشر في بيوتنا، وتشيع في انديتنا، وتدفعنا القهقري إلى الوراء بدلاً من ان نحث خطواتنا إلى الأمام.

إن ما أرويه هنا ليس دراسة لشعره، ولا تحليلاً لمواقفه، فالمكتبة العربية حافلة بمثل هذه الكتب عنه، ولكني في هذه العجالة ملمت ذكرياتي عنه، وجمعتها دون تنسيق، لكي أقدم للقارئ العربي سيرة حياته كما رواها لي ذات يوم، مع بعض اخباره التي قد تصلح مادة لهؤلاء الذين يتصدون لدراسة شعره، ولو لم أقم بهذه المحاولة لمانت هذه الذكريات إلى جانب اخواتها بين ضلوعي التي تئن لتركها غافية. وقد رايت ان اختم هذه الذكريات بمرثية الصافي للزعيم الشعبي فخري البارودي، وقد طلب مني تدوينها والاحتفاظ بها دون ان يسمح لي بنشرها، لأنه كان يرغب ان يتوج بها آخر دواوينه التي لم تنشر. وقد كان هذا الديوان محفوظاً في البنك البريطاني الذي نهب اثناء احداث لبنان عام ١٩٧٦.

رثاء الصافي للبارودي نثراً

«مات وجه دمشق.. مات كرم دمشق.. مات نبل دمشق.. مات وفاء دمشق.. ماتت أناقة دمشق.. مات ترف دمشق.. ماتت إنسانية دمشق.. ماتت مضافة دمشق.. مات المساهم في استقلال سورية.. والمساهم في استقلال البلاد العربية.
مات قائل: بلاد العرب أوطاني.. مات شاعر دمشق بروحه وأحاديثه وأعماله.. مات المتفقد للمعوزين والمستورين في دمشق.. مات عنوان دمشق.. ماتت هالة دمشق.. مات زعيم دمشق.. مات طرب دمشق.. مات أنس دمشق.. مات نادي دمشق.. مات محبوب دمشق.. مات ممثل دمشق.. مات من لا تجد بديلاً عنه دمشق.. ماتت ذكريات دمشق الجميلة..
مات آخر صورة لدمشق القديمة.. ماتت كعبة الخرفاء.. ماتت محجة الفنانين.. مات مقصد الأدباء.. مات مقصد الوفود.. مات

حكايات مع الادباء

صديق الجميع.. مات محبوب الجميع..
مات الموحد بين الأرستقراطية والديمقراطية.. مات حبيب
الشعب.. مات صديق الأكابر والصغار.. مات زعيم الشعب..
مات من لا تموت ذكرياته.. مات من لا ينتهي الكلام عن مزاياه..
مات من لا تكفي الدموع لبكاه.. مات من شخصه مطبوع في
القلوب.. مات شباب دمشق.. ماتت زينة دمشق.. مات عطر
دمشق.. مات خمر دمشق.. مات فخر دمشق.. مات فخري
البارودي..

وصدق الشاعر في رثائه، لقد أغلقت بموت فخري البارودي آخر
دائرة من الدور التي كانت مفتوحة لاحتواء الظرف والأدب والشعر
في دمشق.

زهير المارديني

ارتجف صوته مرتين وهو يحدثني، وارتخت جفونه، ربما على دمة..
وملاً مقهى فلسطين (مقهى شعبي ببيروت في ساحة رياض الصلح وعلى
بعد أمتار من تمثاله)، جواً من الشفافية الروحية والصفاء النفسي
المريح.. وفي المرتين أحسست بحواجز السنّ تنهار كلها لأجدني أقرب ما
أكون من ذلك الشيخ الذي تجاوز الثمانين، والذي عرف الحب كاعنف ما
يكون، وعاش حياته يتغنى به.. وله، حتى إذا امتدت إليه يد القدر
لتقربه من محبوبه (العراق) كان الضوء قد انطفا في عينيه فقال آخر
أبيات شعره:

يا عودة للدار ما أشقاها اسمع بغداد ولا أراها
مثل هذا الحب الذي يقهر الزمن ويتخطى عتبات الفناء، ويظلّ حياً في
سويداء القلب.. مثل هذا الحب الكبير لا يمكن أن يعرفه إلا شاعر كبير..
ولو لم يقل بيتاً واحداً من الشعر.

على أن حديثنا لم يكن حزيناً كله، بل على العكس شابه مرح كثير..
وفي لحظات لمحت نظرات المقاتل العنيد تتوَّج من عيني الشاعر الذي
أرهقته الشيخوخة، وكأنه نمرٌ مسّ ما زال واثقاً من قوته ومضاء
أسلحته.. وكان ذلك بالطبع حين أثرت موضوع قصة حياته التي لم
تكتب بعد على الورق!!

ها هو ذا أمامي يتكؤم على الكرسي وكأنه طيف، بجسده النحيل..
النحيل... بصوته المرتجف بثقل السنين.. بشعره المبعثر الموزع بين ذقنه
وشاربته وحاجبيه.. بالعباءة الثقيلة تلفّ الجسد من الكتفين حتى أخمص
القدمين، والتي لم تفارقه منذ نصف قرن ونيف.

كان هذا الطيف يظهر أحياناً في شوارع بيروت، وصيدا، أو شوارع دمشق.. يختار مكاناً منعزلاً عن الناس في المتنزهات الشعبية في (الربوة) بالقرب من مدخل دمشق، أو مقهى البحرين (بيروت).. ما إن يراه الإنسان حتى يتوقف ويطلق لخياله العنان!

ففي هذا الطيف تاريخ حافل بالتشرد، والصبر الطويل.. وفيه أيضاً عالم شعري قائم بذاته يجزّ خلفه دواوين الشعر الواحد إثر الآخر. يضاف إلى هذا ترجمة رائعة لرباعيات الخيام رفض الشاعر أن يعيد طبعها بعدما سمع بأن الشباب العربي يقرأها بغريزته لا بعقله فينحرف. طبعت الترجمة بطهران عام ١٩٣٠ ثم نفدت نسخها، وقد رفض الشاعر إعادة الطبع في حياته.

عشت مع هذا الطيف الأعوام المتواصلة في دمشق، وفي بيروت، شاهدته يداوي أمراضه بالصبر وبالجهل.. رأيت في مرضه وصحته، في صراخه وصمته..

كان أول لقاء مع احمد الصافي النجفي في منزلنا القديم الملتصق بمسجد بني أمية والمقابل لضريح صلاح الدين الأيوبي، في عام ١٩٤٤. أما آخر لقاء مع الشاعر فقد كان في مستشفى المقاصد وكان يروي للمحقق قصة إصابته بالرصاص بالقرب من منزله. قال:

(..كنت أسمع في البداية صوت الرصاص! قلت إنهم يضربون الأعداء.. مضت الأيام الخمسة الأولى وأنا قابع في غرفتي القريبة من مستشفى (أوتيل ديو). سألني جاري:
- أين كنت تنام أثناء إطلاق الرصاص؟ قلت:
- في الصالون. قال:

- أما كنت تعلم ماذا أصاب جدار غرفتك؟ (وأراني خمسة ثقوب اخترقتها الرصاصات الموجهة إلى جدار الغرفة من الخارج).

حين هذا إطلاق النار غادرت المنزل مفتشاً عن رغيف خبز، أدفع به جوعي، لقد مضى عليّ ثلاثة أيام بدون أن أتناول لقمة واحدة.. ابتعدت عن المنزل بعض الخطوات، فأحسست بحرارة تسري في جسدي، فاعتقدت في البداية أن الحمى قد عاودتني، فتحاملت على نفسي حتى ارتيمت على باب جاري الذي نقلني إلى منزله وأنا في حالة إغماء. حين بدأت أتنفس سمعت جاري يقول لي:

- استاذ أنت مصاب بالرصاص.. الا تحسّ بالألم..؟

عاودني الإغماء من جديد وحين صحت وجدت نفسي في هذا

المستشفى، والفضل في ذلك إنما يعود إلى جاري الذي اتصل
بالسفارة العراقية وأعلمها الخبر فأمنت لي سيارة إسعاف نقلتني
إلى مستشفى المقاصد، وقد قلت في ذلك شعراً:

بين الرصاص نفدت ضمن معارك فبرغم أنف الموت ها أنا سالم
ولها ثقب في جداري خمسة قد أخطأت جسمي وهنّ علانم

كان هذا لقائي الأخير مع الشاعر وذلك في منتصف كانون الثاني
(يناير) ١٩٧٦، وبعدها انتقل الصافي إلى بغداد التي غادرها فتى ثائراً
قبل ٤٦ عاماً، وحين عاد إليها كان قد شخّ بصره.

المؤلف

النجفي يروي قصته

كان يخشى أن يتحدث عن حياته، وكان في عينيه تساؤل من يخاف أن تكون هذه آخر كلماته، نظر إلي نظرة من يشك.. ثم طاوعني، وحاورني.. ابتسم مستسلماً وراح يحكي، لأول مرة، قصته كإنسان، حكايته كشاعر.

قلت له: من أنت؟

قال: ولدت في بلدة النجف سنة ١٨٩٧ في أسرة علمية دينية من ناحية الأبوين، فإن أبي السيد علي الصافي ورث دراسة العلم الديني عن أجداده حتى الجد السابع السيد عبد العزيز الذي كان أول من سكن النجف. وقد قدم إليها من مشيخة «المحمرة»، وهو من أسرة علمية كبيرة تقيم هناك تدعى آل أبي شوكة. وقد أقام في النجف وشرع في دراسة العلوم الدينية حتى أصبح من كبار مجتهدي عصره، وكان له فضلاً عن العلوم الدينية، علم بالأنساب، حيث يروي عنه بعض معاصريه قائلاً: «..السيد عبد العزيز النسابة».

أما جدي لأمي فهو الإمام الشيخ محمد حسين الكاظمي أكبر علماء عصره وله ترجمة مفصلة في كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة للعالم المؤرخ آغا بزرك الطهراني، ويذكر له عدداً من المؤلفات من بينها كتاب هداية الأنام وهو في علم الفقه ويقع في بضعة مجلدات. والشيخ «محمد حسين» هذا ينتمي إلى أسرة آل معتوق اللبنانية التي تعيش في بلدة الزرارية من قضاء صور، وقد قدم إلى النجف طلباً للعلم.

لقد تعلمت شيئاً يسيراً من قراءة القرآن الكريم على يد (الشيخة) أولاً، ثم تعلمت الكتابة، وأكملت قراءة القرآن الكريم في (الكتاب)، وكنت على صغر سني أنوب عن المعلم في إعطاء درس

الخط للتلاميذ. وقد توفي أبي في وباء الكوليرا الذي اجتاح العراق، وكان سني يقل عن عشر سنين (سنة ١٩٠٧)، فكفل العائلة أخي الأكبر محمد رضا الصافي. ثم خرجت من الكتاب واقتفيت سيرة أبائي في دراسة العلوم القديمة، فدرست الصرف والنحو والمنطق والمعاني، والبيان، وأصول الفقه الإسلامي على يد عدد من الأساتذة.

وكان من أعظم أساتذتي العلامة المجتهد الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني.

كنت ضعيف البنية منذ الطفولة، وقد تقدمت في تلك العلوم لدرجة جعلت الكثيرين يأملون أن أكون خلفاً لجدي لامي الشيخ «محمد حسين الكاظمي».. ولما كنت ضعيف البنية منذ الطفولة، فقد كانت تلك العلوم المعقدة ترهق أعصابي، مما أدى إلى إصابتي قبل الحرب العالمية الأولى بضعف عصبي شديد، جعل الأطباء يشيرون على أهلي بأن أمتنع عن تلك الدروس وأكتفي بالمطالعة بقصد التسلية فقط. فأتجهت منذ ذلك الحين إلى قراءة الأدب القديم والحديث، وأقبلت بنهم على مطالعة الصحف والمجلات والكتب العصرية حيث رأيت عالماً جديداً، وأفاقاً واسعة تتجلى أمام عيني.

من أهم المجالات التي تتلمذت عليها حين ذاك المقتطف والهلال. ومنذ ذلك الوقت وأنا أواصل قراءة كل ما يجد في الثقافة العصرية سواء كانت علمية أو أدبية أو سياسية، كما رحلت أواصل قراءة الصحف يومياً وكأنّها فرض واجب عليّ، رغبة مني في الاتصال بكل ما يجد في العالم.

مطالعتي للصحف والمجلات في سن باكراً، وتعرفني إلى الحياة العصرية، جعلتني أشعر بواجبي نحو بلادي، لاسيّما وقد احتل الإنكليز العراق في ذلك الوقت. فما كادت تضع الحرب أوزارها حتى تفاهمت مع عدد من شباب النجف وبعض رجالها، وفي

طلبتهم رفيقي الذي كنت الازمه سنوات، رغم انه اكبر مني سنًا وعلمًا، وهو المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي العراقي سابقاً. وكان من رفاقي المرحوم «سعد صالح» الذي شغل وزارة الداخلية فيما بعد.

تفاهمت مع الشبيبي وسعد وغيرهم على أنه من الضروري أن نفتح فرصة الاستفتاء المقبلة على مصير العراق بناءً على مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون الأربعة عشر، ومنها أن لكل شعب حق تقرير المصير بنفسه. وقد أقنعت أخي الأكبر السيد محمد رضا بالسير معنا في هذا الطريق، ثم أقنعنا العالم الشيخ عبدالكريم الجزائري بالتضامن معنا، وكانت له مواقف بارزة في تطور أحداث العراق فيما بعد.. وهكذا انطلق عددنا يزداد مع الأيام، ورحنا نتصل بزعماء العشائر، وبطلاب الاستقلال.

وعندما قدمت لجنة الاستفتاء إلى العراق حاول الإنكليز بواسطة انصارهم المماطلة والتلاعب والانحراف عن النهج الصحيح لاستقلال العراق، وقد أدى سوء التفاهم بين الوطنيين العراقيين والإنكليز إلى عقد الاجتماعات السرية تمهيداً للثورة.

كانت تلك الاجتماعات تعقد في بيتنا الذي كان أحد مراكز مؤتمرات الثورة فيما يخص ناحية النجف... وكان لنا اتصال بسائر مراكز الثورة في سائر المدن العراقية. وكنا نكتب الثوار بواسطة (الحبر السري) إلى أن عقد اجتماع كبير في الجامع الهندي بالنجف، ألقى فيه خطب حماسية وأشعار مثيرة، وعلى الأثر أصدر الحاكم الإنكليزي في بغداد أمراً إلى حاكم النجف بإلقاء القبض على الفئة المحرّضة، وكان من بين هذه الفئة اسمي واسم سعيد صالح، ولم أكن أعلم بذلك حين ذاك، ولكنني علمت هذا منذ عشرين سنة، حينما قرأت ذلك في عدد من مجلة الحرب العظمى التي كان يصدرها الأستاذ عمر أبو النصر. وكان ذلك العدد خاصاً بثورة العراق.

ثم أخذت بذور الثورة تسري في العراق سريان النار في الهشيم حتى اندلعت لأول مرة في بلدة الرميثة، ثم امتدت إلى معظم أنحاء العراق.. وهنا أصبحت الاجتماعات في بيتنا علنية من قبل الزعماء والضباط الذين كانوا يساهمون في توجيه الثوار. وقد كان ذلك في أوائل أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٠. وبعد أن استمرت ستة أشهر، ساق الإنكليز قوة كبرى، اضطرت الثوار على أثرها إلى الانسحاب من مواقعهم متجهين إلى جهة الكوفة.. وعندما أصبحنا نسمع المدافع تطلق بين ذي الكفل والكوفة عقدنا أنا ورفيقي سعيد صالح ورفيقان آخران، اجتماعاً قررنا على أثره مبارحة العراق حتى نرى كيف ستتطور الأمور..

قطعنا الجزيرة بين دجلة والفرات، واقتربنا من حدود بلدة «الحي» الواقعة على ضفاف دجلة، فانفصل عني رفيقي سعيد صالح، وذهب مع رفيقيه إلى «العمارة» ومنها إلى الكويت، ثم عادا فيما بعد إلى العراق.

أما أنا فواصلت سفري إلى «الحي» بعد أن غيّرت هيئة لباسي، وانتقلت منه إلى «كوت الإمارة»، ومن هناك دخلت الحدود الإيرانية عن طريق جبل الأكراد.. وبعد شهر تقريباً وصلت إلى طهران فقرأت في الصحف الفارسية نبأ دخول الجيش الإنكليزي إلى بلدة النجف واعتقالهم خمسة من زعمائها كان أحدهم أخي الأكبر السيد محمد رضا.. وقد وضعوه في سجن خاص في الكوفة، ووضعوا المشنقة أمامه تهديداً له، وجزاء له لجعل بيته مركزاً للثوار.

وبعد أن أمضى أخي في السجن خمسة أشهر أفرج الإنكليز عنه بعدما قرروا إعطاء العراق استقلاله. وعندما خرج من السجن أرسل لي إلى طهران تلك الأبيات الخمسة طالباً تخميسها، فخمستها وأعدتها إليه، فنشر الأصل والتخميس في مجلة (لغة العرب) للعلامة الأستاذ الكرمل. وهذه الأبيات مثبتة في ديواني

الأول (الأمواج).

وهذا هو النص الكامل للقصيدة مع تخميسها:
إننا في سوى العلى ما رغبنا
نملا الكون رهبة إن غضبنا
ما جزعنا للسجن يوم غلبنا
«إن من رام مثمنا قد طلبنا»
«لا يبالي إن سيق للسجن سوقاً»
نحن قوم عن العلى ما قصرنا
حيثما دار كوكب العز درنا
وإذا جار حادث الدهر جرنا
«رخصت عندنا النفوس فثرنا»
«نطلب العزَّ والعلی لا لنبقى»
قد خلقنا دون الورى أحراراً
وامتلكنا التيجان والأمصارا
وجعلنا لنا المعالي شعارا
«ولقد سامنا العدو احتقارا»
«فرأنا نستسبق الموت سبقاً»
إن ذلي موتي وعزِّي حياتي
ما انتنت للعدو يوماً قناتي
أنا فرع من دوحة المكرمات
«أنا من أسرة كرام أباء»
«لا يرون الحياة في الذل أبقي»
أنا لما أسرت لم أبدِ ضعفاً
لا ولم أرجُ من عدوي عطفاً
ولقد قلت والردى بي حقاً
«شرع أن يكون موتي حتفاً»
«أو أراني يكون موتي شنقاً»

بعد ستة أشهر من إقامتي بطهران طلبت وزارة المعارف هناك عدداً من المعلمين على أن يؤدوا الفحص أولاً، فتقدمت بطلبي للتعليم، وأجروا لي فحصاً أعطوني على أثره أعلى درجة في النحو، وهي درجة العشرين، وعينوني مدرساً اختصاصياً للأدب العربية في ثلاث مدارس ثانوية هي (المدرسة العلمية) و(المدرسة السلطانية) و(المدرسة الكمالية)، وكنت أدرّس في اليوم ساعتين، ولكن ضعف بنيتي القديم مع المرض العصبي الذي أصابني في العراق منعاني من مواصلة التعليم، فاستعفيت بعد سنتين، وأخذت أتمرّن على الكتابة بالفارسية..

بعد ستة أشهر تقريباً شرعت اكتب في أمهات الصحف والمجلات هناك، منها صحيفة (شفق سرخ)، ومجلة (أرمغان) لسان حال النادي الأدبي في طهران، وعلى ضوء ما كنت أنشر من مقالات أدبية، انتخبت عضواً في ذلك النادي، ثم عينت عضواً في لجنة التأليف والترجمة في عهد وزير المعارف السيد محمد تدين.

اتفقت مع الوزير على ترجمة كتاب (علم النفس) لعلي الجارم وأحمد أمين لقاء أجر معين. ثم ترجمت رباعيات الخيام نظماً من الفارسية إلى العربية، تلك الترجمة التي طبعت مرة واحدة في طهران مع الأصل الفارسي، وكانت هذه الطبعة تحتوي مع الأصل الفارسي على لوحات فنية رائعة. وحين نفدت هذه الطبعة تلكأت في إعادة طبع تلك الرباعيات عندما رأيتها تضرّ بأكثرية القراء الذين كانوا يسيئون الاستفادة منها إذ كانوا يقرأونها في الحانات، ويزيدون من معاقرة بنت الحان، بينما كنت أهدف من الترجمة الناحية الفنية والجمالية فقط..

بعد أن مرّ عليّ ثماني سنوات في طهران جاءني الطلب من حكومة العراق ومن أصدقائي من زعماء الثورة العربية الكبرى (١٩٢٠)، يدعووني للعودة للمساهمة في خدمة العراق الذي أصبح مستقلاً. فعدت بدافع الحنين وبدافع خدمة الوطن سنة (١٩٢٧). وعندما بلغت الحدود العراقية، وكان زيّّي قد تأثر بالزّيّ الفارسي،

جاءني رؤساء المخفر العراقي ليفتشوا حقييتي فقلت لهم: أنتم تفتشون حقييتي وأنا فرح بكم جدّ الفرّح لأنني رأيتمكم طليعة العراق المستقل، وقد ذهبت إلى إيران لاجئاً من ثورة العراق الأولى حتى أشاهد هذا اليوم الجميل..

عندما سألوني عن اسمي وشخصيتي وشرحت لهم ذلك تساقطت دموعهم من الفرّح وأخذوني إلى المخفر واحتفوا بي، ثم ودعوني بكل شعور فياض.

عندما وصلت إلى العراق حاولت وزارة العدلية التي كان على رأسها السيد داوود الحيدري تعييني قاضياً شرعياً في بلدة الناصرية، ولكن جو العراق القاسي والدوسنطاريا التي كانت أصابتني في طهران، مضافاً إلى أمراض السابقة، هاجمتني ومنعتني من القيام بتلك الوظيفة. فقضيت ثلاث سنوات أعاني أقسى الآلام والأمراض وكان أشدها في السنة الأخيرة حيث وقعت طريح الفراش لا أستطيع الحراك أثناءها. وكاد أهلي أن يأسوا من شفائي إلى أن قيّض الله لي طبيباً سورياً هو الدكتور سعد الدين عيسى فأشرف على علاجي، وبعد أشهر قمت من فراش المرض، فأشار عليّ بالمجيء إلى سورية ولبنان للاستجمام، فقدمت إلى دمشق سنة ١٩٢٠، وبقيت منذ ذلك التاريخ أتنقل بين البلدين. وقد دخلت في اثنائها بضعة عشر مستشفى سواء في لبنان أو في سورية أو القدس دون أن أحصل على شفاء كامل يشجعني على العودة للعراق، على أن ذلك لا يهم عندي طالما أنني القائل:

إنني امرؤ عربي والعلي نسبي

في أي أرض أرى عرباً أرى وطناً

ولما حدثت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وكنت حينذاك في لبنان، بادرت إلى المساهمة في تأييد الثورة برغم ما كنت أعانيه من أمراض، فكنت على رأس مظاهرة طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت ثاني يوم قيام الثورة، كما كنت أتعاون مع بعض العناصر القومية في لبنان بإرسال متطوعين إلى العراق. وعندما انتهت الثورة

واعقبتها حرب فيشي، وقرب الإنكليز من لبنان فر أصحابي الذين كانوا يتعاونون معي إلى برلين وروما، أما أنا فلم أكن أستطيع الفرار. ولذا اعتقلني الإنكليز لدى دخولهم إلى لبنان ووضعوني وديعة في سجن الفرنسيين في غرفة على سطح إدارة الأمن العام الفرنسية، تمهيداً لنقلي إلى معتقل الميَّة وميَّة. وبعد أن مرَّ على سجنني شهر ونصف شهر نقلت عند اشتداد مرضي إلى مستشفى سان جورج، وتوسطت حكومة العراق عند الإنكليز للإفراج عني، فخرجت من السجن، وكان رفيقي السري في السجن البيتان اللذان نظمتها في معاناتي مشيراً فيهما إلى سجن أخي الأكبر وهما:

سجنت، وقبلتي في العلي سجنوا أخي

وأمل في العلياء أن يسجنوا الابنا

إذا لم نورث تاج مجد وسؤدد

لأبنائنا طراً، نورثهم سجناء..

هذا موجز من تاريخ حياتي، أما من ناحية الشعر فقد قدمت منه حتى الآن للمكتبة العربية عشرة دواوين مطبوعة بالإضافة إلى دواوين أخرى معدة للطبع. وكانت بيئتي في النجف بالإضافة إلى طابعها الديني بيئة أدبية أيضاً، ولا سيما فيما يختص بالشعر الذي كنت أسمع في كل مجلس وناد.. أضف إلى ذلك أن أسرتي كلها تتعاطى نظم الشعر، فمن الأسرة نمت في الروح الشاعرية منذ الطفولة. أما شعري فأرى أنه فضلاً عن تعبيره عن شخصيتي الخاصة، يستمد من ثقافات ثلاث، وهي الثقافة القديمة، والثقافة الحديثة، والثقافة الفارسية، وعلى الخصوص الثقافة الفارسية، فإن السنوات الثماني التي قضيتها في طهران لم أقضها في درس الفارسية وآدابها فقط، وإنما قضيتها بأن عشت تلك المدة متغلفاً في حياة أهل فارس كواحد منهم، مع التمسك الشديد بعروبتي، وهذا هو الذي ساعدني على أخذ الروح والطبيعة، والمجتمع بكل نواحيه من أعاليه إلى أدانيه، أكثر مما كنت أستطيع أخذه من الكتب الفارسية فحسب. بالإضافة إلى تلك المدارس الثلاث التي

أمدت شاعريتي فإن هناك مدرسة أعظم منها وهي مدرسة التشرد،
فإن الحياة المضطربة التي عشتها نتيجة لأمراض المتواصلة وعدم
الاستقرار، كل هذا جعلني أدرس الحياة دون أن أقصر على ناحية
واحدة من نواحيها، والفضل يعود إلى تلك المدرسة العظمى، أعني:
مدرسة التشرد. وقد قلت في ذلك:

عذبت في نفس يعز قنوعها
يقظاتها تلد البلا وهجوعها
أبدأ تطوف فلا تفوز براحة
ومعيشة الآلام لا تسطيعها
أقسمت لي يا رب عيش تشرد
لأطوف أسرار الدنا، فأذيعها؟

رباعيات الخيام

من أشهى موائد الطرائف واللطائف، وأحبها إلى نفسي تلك
الجلسات التي كنت أقضيها إلى جانب الشاعر أحمد الصافي
النجفي؛ فقد كانت في تلك الجلسات أطيب الاطلاع الأدبي
الواسع. وعندما بدأت الكتابة عن الشاعر عادت إلي ذكريات تلك
الجلسات وما كانت تحوي من طرف أدبية منتزعة من مناجمها في
كتب التراث التي سبق للصافي أن اطلع عليها في مشوار حياته.
وقديماً قيل إن الأذن مجاجة، وإن للنفس حمضة. وفيما قرأته أن
ابن عباس كان يقول - إذا أفاض في الحديث بعد القرآن
والتفسير -: أحمضوا.. وذلك حين يخاف عليهم الملل فهو يحب أن
يريحهم ولذا فإنه يأمرهم بالإحماض، أي بالأخذ في ملح الكلام
ونوادر الحديث.

كان الصافي خزانة أدب وظرف ومنادرات.. وكان متعدد
المواهب، فهو راوية إخباري له بصر بكثير من الفنون، ثم هو شاعر
رقيق مقبول الألفاظ حاضر النادرة.

حدث يوماً أن كان يحدثني عن شاعر من هؤلاء الشعراء الذين لم يملأوا الدنيا ولا شغلوا الناس رغم وقوفه على أبواب المائة. بل كان من هؤلاء الشعراء الظرفاء الذين أدركهم أبو الفرج الأصبهاني صاحب موسوعة الأغاني - وفق تعريف الصافي - وكانت تربطه بالأصبهاني أكثر من صلة، فهو صديقه، وهو نديمه، وهو شيخه وأستاذه أيضاً. فقد كان لحظة البرمكي يكبره بأكثر من نصف قرن، ولم تكن هذه المسافة الزمنية الطويلة لتكون فارقاً بين طبعين يتفقان في كثير من الملامح النفسية، وقد امتدت حياة لحظة البرمكي لتمتد هذه العلاقة المتكافئة، وكان كلاهما مهماً لثيابه، رقيق الدين، وكانا يتفقان في كثير من الصفات مع الصافي النجفي.

وحيث كان الصافي يتحدث عن لحظة تنبسط أساريه، ويمضي في الحديث عن قطوف من أطايب أشعاره العذبة السمحة الرقيقة. كقوله يعاتب صديقاً في زيارته فلا يقطع ما بينه وبينه، ولكنه يتخذ منه موقفاً:

وإذا جفاني صاحب

لم استجز ما عشت قطعه

وجعلته مثل القبو

ر ازورها في كل جمعة

ويترأى لنا لحظة في أواخر أيامه على حمار هزيل مضرور في حال تدلّ على سوء حال:

تعجبت إذ رأيتني فوق مكسور

من الحمير عقر الظهر مضرور

فقلت لا تعجبي مني ومن زمن

أخنى عليّ بتضييق وتقتير

بل فاعجبي من كلاب قد خدمتهمو

تسعين عاماً بأشعاري وطنبوري

ويصف الصافي لحظة، وفقره، وسوء حاله، ومسكنه، وكأنه

يصف نفسه، ويقول: كان لحظة يثور على نفسه وعلى الأدب وما جرّه عليه فنسمعه يقول:

حسبي ضجرت من الأدب
ورأيت سبب العطب
وهجرت إعراب الكلا
م، وما حفظت من الخطب
ورهننت ديوان النقا
نض واسترحت من التعب!

ويقول لحظة المسرف المتلاف:

أنفق ولا تخش إقلالاً فقد قسمت

بين العباد مع الأجال أرزاق

لا ينفع البخل مع دنيا مولية

ولا يضرّ مع الإقبال إنفاق

على هذا النحو كنا نمضي الوقت المحبب مع الصافي، نصغي إليه ونطرب من نوادره. وحدث يوماً أن كنا وحدنا في مقهى أبو رسول في «الربوة»، وقد تعبنا من تبادل أحاديث الهزل، فسألته: - لقد كثر الحديث عن أسباب ترجمتك لرباعيات الخيام، ونقل عنك الكثيرون الأقوال المتضاربة حيالها، فما هي الأسباب التي دفعتك للإقدام على ترجمة الرباعيات؟

قال: أول ما قرأت من رباعيات الخيام هو تعريب الأديب وديع البستاني، وقد أثرت في نفسي قراءتها حينذاك بحيث نقلتني من عالمي المحسوس إلى عالم خيالي بديع ملؤه اللذة والهناء. فوددت لو بقيت فيه ولا انتقل إلى هذا العالم الهادي المفعم بالآلام والأتعاب. وقلت لنفسي إن كان هذا أثر التعريب فما هو أثر الأصل يا ترى؟

من ذلك الحين أخذت أسعى للوصول إلى ينبوع الرباعيات الأصلي. لأن السواقي والأنهار مهما نقيت لا بدّ من أن تحمل مع النмир العذب فضلات وزوائد تعكر لونه وتفسد طعمه. شعرت

بالحاجة إلى تعلم الفارسية وأدائها، ولكني كنت في بيئة عربية والأسباب لم تكن متوفرة لدي لبلوغ تلك الأمنية. فحدث بعد حين أن ثار العراق ثورته الكبرى ثم انتهت الثورة بانكسار الجيش الوطني فاضطرتني الظروف إلى مغادرة بلادي، واتخذ طهران داراً لهجرتي.

أقمت في طهران ثماني سنوات كان همّي الوحيد خلالها دراسة الأدب الفارسي والنفاز إلى معانيه الدقيقة ومرامييه السامية، لأصل منها إلى الينبوع الصافي الذي سألت منه خيالات عمر الخيام الشاعر الذي شغفت به دون باقي شعراء الفرس.

ثم بلغت من درس الأدب الفارسي المنزلة التي كانت تتوق إليها نفسي، وأخذت أكتب وأترجم وأنشر باسم سيد أحمد نجفي في أمهات الصحف الفارسية، كصحيفة (شفق سرخ) و(كوشش) و(إقدام)، ومجلة (أرمغان) لسان حال النادي الأدبي بطهران، ومجلة (تعليم وتربيت). ثم كلفتني وزارة المعارف أن أترجم لها كتاب (علم النفس) الذي اشترك في تأليفه الفاضلان المصريان السيدان علي الجارم وأحمد أمين ليدرس في دارالمعلمين بطهران، فترجمته لها، وبعدئذ انتخبت عضواً في النادي الأدبي الفارسي بطهران.

وحينذاك أخذت أطلع الرباعيات بالفارسية، فوجدت تعريب الأستاذ البستاني رغم ما اشتمل عليه من سمو وإبداع لم يكن يمثل مع الأسف من الرباعيات إلا قشورها البراقة وأصدافها اللامعة، وكان له العذر في ذلك إذ لم يكن عارفاً بالفارسية فترجم رباعياته عن الإنكليزية. ومن أجل ذلك بقي الدرّ واللباب في كنز مرصود لم تستطع أن تفك طلاسمه قرائح المترجمين.

كل ذلك حرّك رغبتني إلى محاولة فكّ تلك الطلاسم واكتشاف ما اختبأ في ذلك الكنز، لعلّي أستطيع أن أتحف قراء العربية لغتي المحبوبة، لا بتلك الخيالات الشعرية المعروفة التي تدفع إلى التشاؤم، وتدعو إلى اللذات فحسب، بل بتلك اللآلئ المكنونة التي

تمثل آراء الخيام الفلسفية ونكاته الأدبية البديعة. وقد أدركت حينئذٍ خطورة موقفني وما يعترضني فيه من العقبات مما يدركه كل من عانى ترجمة الشعر بشعر مثله. ولا غرو فإن نقل المعنى شعراً من لغة إلى أخرى مع الاحتفاظ بالمعنى الأصلي، بحيث لا يبدو عليه أثر التكلف في الترجمة، أمر شاق تهى دونه العزائم وتقف الهمم حائرة أمامه. ولكن الرغبة سرّ النجاح، والعشق يجتاح العراقيل ويذل الصعوبات. فانصرفت وكلي رغبة نحو التعريب، وأخذت أجرب قريحتي في تعريب بضع رباعيات عرضتها عند ترجمتها على أدباء الفرس العارفين بالعربية وأدائها، فقابلوها بالأصل وأبدوا إعجابهم بها، وشجعوني على إكمال العمل. فأخذت أوالي السعي وأفرغ الجهد ثلاث سنوات كاملة، لم يكن لي فيها شغل سوى إتمام هذا العمل حتى اكملتها ثلاثمائة وإحدى وخمسين رباعية. وكان همّي الوحيد أثناء التعريب متجهاً لأمرين: الأول، الأمانة في النقل والاحتفاظ بالمعنى الأصلي حتى ظهر أكثر الرباعيات كأنه قد ترجم كلمة بكلمة.

الثاني، تقريب التعريب بقدر الطاقة من الذوق العربي. وكان ذلك يلجئني أحياناً إلى أن أفرغ الرباعية الواحدة في أكثر من عشرين سبكاً حتى أختار من بينها السبك الوافي بأداء المعنى والمطابق للذوق العربي. وكثيراً ما كنت أضحي بخيالي الشعري في سبيل تحقيق هذه المهمة. وربما يرى الأديب كلمات في الترجمة يمكن استبدالها بأحسن منها، ولكن ليثق من أنني قد أثرت هذه الكلمات على غيرها (مما هو أنسب منها للذوق) لئلا يؤدي تبديلها إلى خلل في المعنى الأصلي.

وما كنت أحميد عن هذا الغرض وأتي بشيء من التصرف إلا عندما أعجز عن كل الوسائل للاحتفاظ بالمعنى الأصلي. وهناك رباعيات جميلة لم استطع مع إفراغ الجهد أن أبرز معانيها المهمة كاملة في الترجمة، مع الموافقة للذوق العربي فتنحيت عن ترجمتها معترفاً بعجزتي وقصورتي.

ولما اكملت التعريب عرضته على أدباء الفرس فقابلوه بالأصل وأكبروه غاية الإكبار.. وإليك ما فاه به أكبر شعراء الفرس المعاصرين وهو محمد حسين بهار الملقب (بملك الشعراء) قال: «إن بعض التعريب مع كونه مطابقاً للأصل جداً فهو يفوقه من حيث البلاغة والأسلوب كهذه الرباعية:

لم يحظ في الدهر من ورد الخدود فتى
إلاً وكابد من أشواكه العطبا
انظر إلى المشط لم تبلغ أنامله
أصداع أغيد ما لم ينشعب شعبا
والرباعية الآتية:

أيا فلکاً یربّي کل نذل
ولیس یدور حسب رضا الکریم
کفی بک شیمه أن رحت تهوی
بذی شرف وتسمو باللئیم

ولا أنسى ما قاله أحد كبار العلماء والأدباء هناك، وأعني به العلامة الملقب بصدر الأفاضل، الذي كان يدرس الأدب العربي للشاه، قال بعد أن أطلع على الرباعيات بتمامها: «أكاد أعتقد أن الخيام نظم رباعياته بالعربية والفارسية معاً، وقد فقد العربي منها فعثرت عليه وانتحلته لنفسك».

وقد نشرت مجلة (أرمغان) لسان حال النادي الأدبي في طهران قطعاً من التعريب مقرونة بالأصل، مع مقدمة ضافية نوّهت فيها بمكانة هذا التعريب.

ثم إنني أرسلت نماذج من الرباعيات مصحوبة بأصلها الفارسي من حرف الدال، للعلامة المتبحر الميرزا محمد خان القزويني الذي كان يقيم في باريس، والعارف بمعظم اللغات الأوروبية، والعضو في مؤتمر المستشرقين بأكسفورد، والذي كان العضد الأيمن للمستشرق الإنكليزي الأستاذ (براون) في نشر الكتب الفارسية والتعليق عليها، وطلبت إليه أن يقيس تعريبي هذا بما ترجم من الرباعيات إلى

سائر اللغات، فأجابني بكتاب يجمع بين تقرّظ وانتقاد.
أما انتقاد الأستاذ العلامة فينحصر في الوزن فحسب، ذلك لأنني
لم أحتفظ بالوزن الأصلي، أعني بحر (الدوبيت)، ولم أقيد نفسي
بوزن خاص يطرد في جميع الرباعيات، وشفيعي في ذلك أمران:
أحدهما الاهتمام بأداء المعنى الأصلي في أي وزن أمكن، إذ إن
ذلك هو غرضي الوحيد من الترجمة، وكنت لذلك اضطر أحياناً أن
أجيل الترجمة في بضعة أوزان حتى أعرّ من بينها على الوزن
الوافي بأداء المعنى..

الثاني: أن الأذن تملّ من استماع نغمة تتكرر في وزن واحد،
وتميل إلى التنوع. فما الوزن إلّا نوع من الموسيقى، وكل يعرف
كيف يعتري السمع الملل عند استماع القطعة الموسيقية ذات
اللحن الواحد المتكرر المعبر عنه اليوم بموسيقى الهمج، وكيف
يرتاح السمع عند استماع القطعة الموسيقية ذات الألحان المتنوعة،
ومثل ذلك يعرض للعين أيضاً عند مشاهدة الروضة ذات الزهر
الواحد، أو الروضة ذات الزهور المختلفة.

وقد اعتمدت في الأصل الفارسي على نسختين إحداهما النسخة
التي جمعها الكاتب البحّاث الأديب السيد رشيد الباسمي الموجودة
في مكتبة طهران، والثانية النسخة التي طبعها عن نسخة قديمة،
وقابلها على نسخ كثيرة المستشرق الألماني الدكتور فريدريك روزن.
ونظراً إلى الدقة التي توخيتها، فقد فتحت المجال لكتاب العربية
وأدبائها لكي يدققوا النظر في فلسفة الخيام ويقابلوا بينها وبين
فلسفة المعري. فإني رأيت كثيراً من معاني الخيام مأخوذة عن
المعري في «لزومياته» أو في «سقط الزند»، وبعضها مأخوذة عن
شعراء آخرين، وعلى سبيل المثال أذكر لك ما يلي:

قال المعري:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة

تجهلني كيف استقرت بي الحال

وقال أيضاً:

أيأتي نبي يجعل الخمر حلة
فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني
أخذ الخيام هذا المعنى فقال ما تعريبه:
ربي افتح لي باب رزق وأرسل
لي قوتي من دون هذا الأنام
وادم نشوة الطلا لي حتى
تذهلني ما عشت عن الأمي
وقال المعري:

أرواحنا معنا وليس لنا بها
علم فكيف إذا حوتها الأقبر
أخذه الخيام، فقال:
سرّ الحياة لو أنه يبدو لنا
لبدا لنا سرّ الممات المبهم
لم تعلمن وأنت حيّ سرّها
فغداً إذا مات ما مت ماذا تعلم؟
وقال أبو الحسن الباخري المترجم في وفيات الأعيان:
يا صاحب العودين لا تهملهما
حرك لنا عوداً واحرق عوداً.

أخذه الخيام فقال ما تعريبه:
وهلمّ بالعودين واكتمل الهنا
وقّع على عود واحرق عوداً
ومن غريب ما رأيت من تصرف العربيين هو تنظيم الرباعيات
وتقسيمها إلى أناشيد حيث جعلوا كل رباعية مرتبطة بالأخرى، مع
أن كل رباعية في الأصل مستقلة بمعناها لا علاقة لها بالأخرى
أصلاً، وقد جمعت في الفارسية غالباً مرتبة على حروف الهجاء. ولا
شك أنه ما استطاع المترجمون أن يجعلوها سلسلة متصلة
الحلقات، إلا بعد أن تصرفوا في معناها فأتوا بالشعر القديم
الشرقي على نمط الشعر العصري الغربي.

ومما يجدر التنبيه عليه أن اسم الرباعية كان يطلق قديماً على الأربعة أشطر، كما في رباعيات الخيام التي يتألف كل منها من بيتين. كما أنها وردت في بحر فارسي دخل على العربية يسمى (بحر الدوبيت)، أي بحر البيتين، ولكن بعض المتأخرين من أدباء العرب كالإياس فرحات، والشيخ علي الشرقي قد أطلقوا اسم الرباعية على أربعة أبيات تشبيهاً لها برباعيات الخيام، في حين أن رباعيات الخيام تتألف من بيتين فحسب.

هذا بعض ما دونته من حديث الصافي عن الأسباب التي دفعته لترجمة رباعيات الخيام، وقد طلب مني الصافي كتابتها ليعيد النظر فيها، وحين قراها مثني وثلاث ورباع نسخها بخطه واحتفظ بالأصل.

ترفع الصافي فارتفع

لم يكن الشاعر أحمد الصافي النجفي من الشعراء الذين يتخذون من الشعر مطية إلى المال.. فالشعر في رأيه، فن، وفكر، وموقف.. فلم يتكسب في حياته من شعره على غرار أمثاله من شعراء عصره، كما أنه لم يركب الموجات الشعبية العاطفية ليربح الفوغاء، بل على العكس كان ينتقد الفوغاء في سبيل الدفاع عن الحق. فحين اتخذت جمهرة الشعراء موقفاً من كبار السياسيين المحافظين في الوطن العربي بالهجوم عليهم، انبرى الصافي ليذكر محاسنهم مما عرّضه في كثير من الأحيان إلى التجريح. فالشعر العربي في بداية ظهوره على الأفواه كان بريئاً من إكداء الشعراء، والتكسب بالشعر لم يبدأ مع ظهور الشعر السياسي، فقد بدأ قبل ذلك في العصر الجاهلي على نحو ما.. ونحن نرى - في هذا العصر - شاعراً ضخماً فخماً كزهير بن أبي سلمى ينقطع لمدح جماعة من سادة (غطفان)، وبخاصة هرم بن سنان، والحارث بن عوف. فقد هزّت شاعريته أريحيتهما وتحملهما الديات لإطفاء نار الحرب بين

عبس وذبيان، على نحو ما هو مبسوط في مظان التاريخ الأدبي، فاستنفذ في مدحهما أكثر شعره وأجوده، وبسط له هؤلاء الممدوحون أيديهم وأغدقوا عليه.. وكان زهير شاعراً مجوداً حكيماً. وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب شديد الإعجاب به. وكان يسميه شاعر الشعراء. ومما يؤثر أنه قال لبعض أولاد هرم: أنشدني بعض ما مدح به زهير أباك.. فأنشده: (دع ذا وعد القول في هرم) فقال عمر: إن كان زهير ليحسن القول فيكم، فقال له: ونحن والله إن كنّا لنحسن إليه العطاء.. فقال عمر: - ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

ومن هذا ما حكى أبو الفرج من أن عمر قال لابن زهير: - ما فعلت الحل التي كساها هرم أباك؟ قال: - أبلاها الدهر.

فقال عمر:

- لكن الحل التي كساها أبوك هرمًا لم يبلها الدهر. كان الشعراء في العصور الإسلامية يركبون متون القوافي إلى الغنى واليسار حتى مع الاستغناء وقلة العيلة، وعدم وجود الحاجة التي تلجئهم إلى أبواب الممدوحين، وهذا ما نراه في حياة (سلم الخاسر) الذي انقطع لمدح البرامكة، ولما مات ترك وراءه مائة ألف دينار، وليس له وارث وفيه يقول أبو العتاهية: تعالى الله يا سلم بن عمر

أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تجيء إليك عفواً
أليس مصير ذاك إلى الزوال؟

وإذا تصفحنا دواوين الشعراء في هذه العصور فسوف نجد أن المدح يأخذ منها أكبر مكان، وكانت هذه المدائح تتصبى الخلفاء والأمراء، وتبهرهم، وتهز أريحيتهم، فقد كانوا عرباً يجيدون العربية ويتذوقون الشعر، ويجيزون عليه ويخلعون على الشعراء ويطرفونهم.. اللهم إلا إذا استثنينا القلة القليلة التي ترفعت عن

التمدح لأسباب خاصة، والذين قصروا أشعارهم على الغزل. وهؤلاء الذين كانوا يناصبون السلطة الجائرة العداء، وكان أحمد الصافي النجفي من هؤلاء بالتأكيد.

امضى الصافي ٣٦ عاماً متنقلاً بين سورية ولبنان. لقد وفد إلى دمشق قادماً من طهران عام ١٩٣٠، وجعل مقاهيها مقراً نهائياً له، فكان يتنقل بين مقاهي «الهافانا»، و«الكمال»، و«الروضة» على امتداد ساعات النهار إذا كان الطقس بارداً، أما في الربيع والصيف فكان يختار مقاهي الربوة الشعبية، وفي الليل يأوي إلى غرفته في مدرسة قديمة كانت في الماضي مخصصة للفقراء الذين يأتون إلى دمشق طلباً للعلم.

كانت المقاهي الدمشقية يومئذ ملتقى للشعراء والأدباء والصحفيين والمثقفين العرب عموماً. وكانت حلقة الصافي من أوسع الحلقات وأكثرها طرافة، فقد كانت تضم صفوة الظرفاء، ونخبة الأدباء. وكان هؤلاء يتحملون مزاج الصافي المتقلب الذي اشتهر به، فكان ينزعج لصوت الراديو إذا ارتفع فيهب ساخطاً لأعناً مخترعه وصاحبه، ومحرّك مفاتيحه، ثم يغادر المقهى إلى مقهى آخر ليس فيه راديو.

طابت الإقامة للصافي في دمشق، وصارت بالنسبة إليه كجنة الخلد، إذا ما غادرها أحسّ أنه في جهنم، وفيها يقول:

أتيت جلق مجتازاً على عجل
فأعجبني حتى اخترتها وطناً
لا يبرح الحسن يوماً من مراتعها
كأنما الحسن من قدم بها افتتنا
لا يرتضي العزّاف شغلاً عن محاسنها
حتى تعادي فيها المقلة الوسنا
أيقنت أنّي من أهل الجنان ففي
دمشق أسكن جنات تفيض هنا

عجبت ممّن أتاهما كيف يبرحها
 فهل يرى في سواها عن دمشق غنى؟
 ما جنة الخلد إلّا للذي سكنا
 بها وما النار إلّا للذي ظعنا
 يكاد ينسى غريب الدار موطنه
 في ربعها ويعاف الأهل والسكنا
 إني امرؤ عربيّ والعلی نسبي
 في أي أرض أرى عرباً أرى وطننا..
 أما حياته في دمشق فكانت أكثر من متواضعة، كانت غرفته في
 «مدرسة الخياطين» عبارة عن غرفة مهجورة لا يتعدى أثاثها
 (فرشة) ممدودة على الأرض منذ جاء الصافي إليها، وكمية من
 الصحف القديمة، وحقيبة كرتونية مربوطة بحبل، وكان يشاطره
 فيها فأر، وقبيلة من البق والعنكبوت. وفيها يقول:
 أكابد البرد في سراج
 يكاد من ضعفه يموت
 في غرفة ملؤها ثقب
 قل ملؤها بيوت
 يسكن فيها بلا كراء
 فأر وبقّ وعنكبوت
 للفأر من مأكلي غذاء
 والبقّ جسمي لديه قوت
 واعتزل العنكبوت أمري
 وفي بقاه معي رضيت
 كم صار في الصيف من بعوض
 قد كنت من لذعه خشيت
 ينسج فوق الثقب بيتاً
 به من الشمس قد وقيت
 ذهب مرة يزور معرض دمشق الدولي، وتعب من السير فجلس

عند إحدى نوافير الماء الجميلة المتلألئة بالأنوار، فجاءت حسناء، وجلست قبالة وسألته:

- أستاذ.. ألسنت أنت الصافي النجفي؟ قال:

- هو بلحمه (على قلة لحمه) ودمه وإعجابه بهذا الجمال الأخاذ، يا ذات الصون والعفاف..

قالت بلهجة (شامية) - تقبرني - قل بي شيئاً من شعرك، ألا ترى أنني أستحق؟

قال: سمعاً وطاعة يا مولاتي.. فارتجل هذين البيتين:

ومليحة جاءت لمعرض جلق

تضفي مناظره بمنظرها الوضي

هي ما أنت حتى تشاهد معرضاً

جاءت لتعرض حسنها في المعرض

من أصدقاء الصافي في مقاهي دمشق:

الدكتور عبد السلام العجيلي، محمد الحريري، أحمد الجندي،
حسيب كيالي، سعيد الجزائري، الدكتور صلاح الدين المحاييري،
عباس الحامض، يوسف العيسى، الدكتور حسام الدين الخطيب
وعشرات غيرهم.

كان هذا وضعه في الشام، أما وضعه في لبنان فكان زاخراً
بالأحداث. شهد الصافي بداية الأحداث في لبنان، وأيام الهدنات
المتقطعة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وقد كان مقهى (الحاج داوود) ما يزال
قائماً، ولم يتحول بعد إلى أنقاض، وكان الصافي حريصاً على
ارتياده أثناء وجوده في بيروت، يختار زاوية من الشرفة البحرية
حيث يقضي أوقاته متأملاً، وكان من السهل على أي من جلّاس
المقهى أن يميزه بعبأته وعقاله وحتى خُفيه!

وكيف لا يتميز من هو نحيل القامة، سقيم اللون، مستطيل
الوجه، مهمل لثيابه. وحدث أن رحت أبحث عنه مع الصديق نزار
الزين صاحب مجلة «العرفان»، وكنا آخر من كان يتفقدّه، فعثرنا

عليه في المقهى الذي كان في تلك الظهيرة فارغاً من الرواد بسبب القصف.

كان الصافي يومذاك حزيناً أشد ما يكون الحزن على ما أصاب لبنان من تدمير، فراح يحدثنا عن ذكرياته في هذا البلد بعبارات ملؤها التفجع والحسرة. لم يترك لنا مجالاً للمناقشة أو حتى السؤال، كان يريد منا أن نصمت، وندعه يتكلم، وكانت نبرات صوته تعلو وهو يقول:

لبنان لا يحتمل كل هذا! ليتركوه لنا مكاناً جميلاً نتنفس فيه بحرية بعد أن أغلقوا جميع نوافذهم التي تدخل منها الحرية.. ضاقت بهم الدنيا ووسعت في لبنان الصغير.. حرام، لا يجوز أن تصل الأمور إلى حدّ إحراق البلد.. أنا أعرف وضع لبنان وخصوصياته الاجتماعية والسياسية، أعرف أشياء كثيرة ثبتتها الأجنيبي، وحاول اللعب عليها كلما اقتضت مصلحته ذلك.. فليس من حق أحد أن يشهر السلاح في وجه أخيه مهما كانت الأسباب، أو التبريرات.. خصوصاً إذا كان مصير الوطن، أو الشعب يتهدده الخطر..

قال هذا وراح يمسح دموعه التي قفزت من مآقيه بالرغم عنه. ومن حق الصافي أن يحزن الحزن العميق على ما أصاب لبنان، ذلك أنه لم يعشق شاعر عربي لبنان، مثلما عشقه الصافي. قضى فيه الشطر الأكبر من عمره.. سكن مصايفه ومدنه الكبرى، بدءاً من بيروت مروراً بطرابلس فبعلبك فصيدا فجزين، وانتهاءً بصور. صحيح أنه لم يطق ضجة بيروت وأماكنها الصاخبة، ولكن الصحيح أيضاً أنه استعذب بحرهما فكان يخلو إلى مقاهيها البحرية خصوصاً مقهى (الحاج داوود) الذي غابت آثاره الآن بفعل هذه الحرب اللعينة.

في المقهى كان الصافي يجلس جلسة مزاجية فلا يكتفي مثلاً بكرسي واحد يجلس فيه بل يستعين بآخر في مدّ رجله أو الاتكاء عليه، وثالث يضع عليه الصحف، وكربي آخر إذا شاء - ولا سيما

في الصيف - أن يخصّ كوفيته وعقاله به. وهو بعد هذا ينزع حذاءه في الغالب ويرفع رجله، واضعاً قدمه على حافة الطاولة إن لم يمدّ رجله على الكرسي الآخر. أما الذين يلتفون حوله فإن كل واحد يسحب كرسيّاً من المقهى ويدنيه منه حتى تتألف من كل هذا حلقة تتسع في أغلب الأحيان وتضيق أحياناً قليلة.

وكان الشاعر العراقي جعفر الخليلي يقول لنا: ما دخلت يوماً إلى مقهى الحاج داوود إلا ورأيت الصافي في وضعية مختلفة عن الجلّاس الآخرين. ومن بين المقاهي البحرية التي كان الشاعر يرتادها أيضاً مقهى (البحرين) القريب من مقهى الحاج داوود. وأحياناً قليلة كان ينخرط في صفوف رواد مقهى (فاروق) في ساحة رياض الصلح، يشرب الشاي المعتق الذي أدمنه، وقال فيه شعراً:

لئن كان غيري بالمدامة مولعاً
فقد ولعت نفسي بشاي معطر
إذا صبّ لي كأس الزجاج حسبته
مذاب عقيق صبّ في كأس جوهر
به احتسي شهداً وراحاً وسكراً
وأنشق منه عبق مسك وعنبر
يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا
ويصحو بكأس الشاي عقل المفكر
يجد سرور المرء من دون نشوة
فأحبب به من منعش غير مسكر
خلا من صداد أو نزيف كائه
سلافة أهل الخلد أو ماء كوثر
فمنه اصطباحي واغتباقي ولذتي
ومنه شفائي من عناء مكر
كأنني إذا ما أسفر الصبح ميت
وإن ارتشف كأساً من الشاي أحشر

فلله أرض الصين إذ أنبتت لنا
الذُّ نبات بالمسرة مثمر
لو ان ابن هاني فاز منه بجرعة
لراح بأقدام ابنة الكرم يزدرى
ولو ذاقه الأعشى وحكم في الطلا
وفيه لقال الفضل للمتأخر
فللفم أحلى مشرب من مذاقه
وللعين من مراه أجمل منظر
عجبت له يكوي اللسان حرارة
ويطفئ نيران الجوى المتسقر

وفي بيروت كان الصافي يأوي مساءً إلى غرفة جدّ متواضعة قرب
مستشفى (أوتيل ديو)، وسرعان ما كان يصيبه السعال ويفتك به
الوهن والضعف نتيجة سوء التغذية وفقر الدم، فنادرًا ما كان يأكل
اللحم! وغذائه في أغلب الأحيان كان يشتمل على الحبوب،
خصوصاً الفول والحمص.. فقد كان أشهى ما لديه أن يأكل صحن
فول تزيّنه الخضروات والبصل والزيتون.

وفي أثناء اعتقاله، نادرًا ما كان الصافي يعرض نفسه على
الاطباء، ولولا إلحاحي لما دخل المستشفى يوماً. وقد تأمرنا عليه،
نزار الزين وأنا، فطلبنا منه مرافقتنا إلى زيارة طبيب صديق، وهناك
أغفى فوجد نفسه في مستشفى الجامعة الأمريكية، ولم يبق فيه
أكثر من ثلاثة أيام بسبب احتجاجه على الممرضات الأرمنيات
اللواتي كنَّ يأنفن من شكله على ما يبدو، أما هو فكان يقول إنهنَّ
لم يقدرن مكانته كشاعر كبير وإنه لم يعد يطيق هذا الجو الخانق.
في أحداث لبنان عام ١٩٥٨ هرب الصافي من بيروت إلى صيدا
حيث استضافه صاحب فندق «طانيوس» الذي كان يهوى الشعر،
ولشدة ما تعلق صاحب الفندق بالصافي ترك له الفندق شهوراً
ليكون مسؤولاً عنه، وحارسه في آن، في تلك الفترة نظم أحلى
قصائده، ومن صيدا قصد جزين وجاور أياماً صخرة شلالها المطل

على الوادي السحيق وأحراج الصنوبر الكثيفة. ومن جزيين عاد إلى صيدا وحل في منزل صديقه نزار الزين، وما لبث قليلاً حتى شد رحاله إلى صور، مسقط رأس والدته اللبنانية. ولعل إقامته بـ صور لم تكن كما يرغب، فهجا بعض أهل المدينة:

سئمت من (صور) ومن أهلها

لا منظر فيهم ولا مخبر

لن أقول الشعر في مدينة

لا تفهم الشعر ولا تشعر؟

مناظر في (صور) فتانة

محتاجة لأعين تنظرا

ومن صور إلى مصايف لبنان فبعبك التي زارها زيارة طويلة أدهشته فيها أثارها التاريخية المتميزة:

دار وحي أم قلعة أنا فيها

كنبي يستنزل الإلهاما

صرت أرنو إلى الطلول وأرنو

لعصور مضت ومجد أقاما

إيه أطلال بعبك أجيبني

أين خلفت قومك الأعلاما

هل يبيد الحمام قوماً إذا ما

نهضوا للحروب قادوا الحماما

هل يبيد الحمام قوماً وهذي

غرّ أثارهم خلدن عظاما

تلك أرواحهم خلدن بفنّ

جلّ عن أن يخلد الأجساما

دعي مرة إلى بلدة شاما البقاعية، فأقام فيها قرابة الشهر، وكان يجلس تحت تينة كبيرة، وإذا بطائرة تمرّ في الجو محدثة أزيزاً مزعجاً، فارتجل الصافي هذين البيتين من الشعر ولم نعثر عليهما في أيّ من دواوينه:

الطائرات مصيبة بأزيرها
لكن تسير وبركان الثرى راسي
لعنت أول ذي صنع لطائرة
حتى ولو كان عباس بن فرناس
ولكن إقامته في (شاما) لم تطل بسبب إقدام صاحب البيت
الذي يقطن فيه على ترك مذياعه على هواه ليلاً نهاراً.. فسرعان ما
غادره الصافي بعد أن سجل على بابه هذه الأبيات:

الراديات مصيبة بضجيجها
إن أمسكتها كفّ جلف ضاري
ليس الحمار بمزعج في صوته
كمذياع بيت حمار

في منتصف الأربعينات سكن الشاعر في حارة حريك (ضواحي
بيروت)، في غرفة منفردة مجاورة لبيت شبيه بالقصر يملكه علي
نصرت بك.. فعلم البك بقدم الصافي إلى جواره فأرسل إليه أحد
خدمه يدعوهُ لتناول الغداء، ف شعر الصافي بالإهانة، لأنه أولاً لم
يأت صاحب الدعوة بنفسه، وثانياً لأنه عامله كبعض الشعراء
الذين يلبون الدعوة كيفما اتفق.. ويومها قال لي الصافي:

ألا يعلم من أنا؟ إنه مهما سما بأصله وحسبه، فلن يبلغ ما أنا
أرجع إليه بحسبي ونسبي، إن نابليون القائد الفاتح عندما احتل
ألمانيا، ذهب بنفسه لزيارة شاعرها الأكبر غوته تقديراً له واحتراماً
لعظمته عندما وجد أن الشاعر قد تخلف عن زيارته لغاية في نفسه،
وما وجد في ذلك من حرج على الرغم من أن معظم أمراء ألمانيا
جاءوا إلى الفاتح لتقديم الطاعة والولاء!

ولكن صاحب القصر استدرك الأمر وتصرف بما يرضي الشاعر
فنظم الصافي قصيدة بوحى الحادثة يقول فيها:

لعن الله علة تركتني
رغم أنني أعيش عيشة شاعر

أنا لولا سقمي نظمت شعوري
في مساع محفوفة بالمخاطر
وأريت الدنيا قصائد مجد
لم تقطع بغير بيض بواتر
سخر البعض من حياتي وإني
مثلهم من حياتي اليوم ساخر
ورثي البعض لي وإني لأرثي
لعقول ترثي لبؤس ظاهر
إن شعري لتسليات عليل
أرغمته على الخمول المقادر
دهش البعض إذ راني عزيزاً
وكفيري بالشعر لست أتاجر
أبدأ أمنح الصعاليك عطفاً
ثم أبدى تكبراً للأكابر
وكذا الشاعر الصحيح نبّي
مرسل والنبي غير التاجر
أنا إما أن لا أكون كفيري
شاعراً أو أكون وحدي الشاعر

كثيرة هي الأمثال التي يجدها المتتبع لإبء الصافي، ومنها قضية
الراتب التقاعدي الذي جاءه متأخراً قرابة ربع قرن..

كان ناصر الحاني سفيراً للعراق في لبنان في الستينات، فشاهد
وهو يمرّ ذات يوم بسيارته في (الكورنيش) وكان الوقت ظهراً، بدوياً
وقد تحلقت حوله حلقة من بعض الشباب. عرف السفير ناصر
أحدهم، وكان أديباً من أدباء لبنان، فأوقف سيارته الرسمية عنده
وسأل عن اسم هذا البدوي، فقال له الشاب:

- ألا تعرفه إنه الشاعر أحمد الصافي النجفي!

نزل السفير من سيارته وتقدم إلى الصافي وأخذه بالأحضان،

وادخله بالرغم عنه في سيارته وسار به إلى بيته، حيث تناولوا طعام الغداء.

كان ناصر أديباً ومحباً للأدباء، استدعته حكومته لأمر ما إلى بغداد، وهناك اتصل بالرئيس عارف وألح عليه لكي يخصص للصافي راتباً تقاعدياً بعد أن تقدم به العمر وأصبح نزيل المستشفيات، فقرر مجلس الوزراء العراقي حينذاك تخصيص مئة دينار شهرياً. عاد السفير إلى بيروت واتصل بي في بحدون وأخبرني بتفاصيل القصة طالباً مني إبلاغ الصافي بهذا النبأ السار.

ذهبت برفقة الشاعر جعفر الخليلي الذي كان يصطاف في (سوق الغرب) لمقابلة الصافي في مقهى فلسطين (ساحة رياض الصلح) وإذا بالصافي يرفض الراتب التقاعدي، وعبثاً حاولنا إقناعه بأن مثل هذا القرار من مجلس الوزراء العراقي ليس إلّا وجهاً من وجوه التكريم، ورفضه غير مستساغ في عرف الدولة والناس. ومع ذلك أصر الصافي على الرفض، ولا أدري كم قضى السفير ناصر الحاني من الأيام حتى حمل الصافي على القبول. موضوع الراتب التقاعدي خلف وراءه أكثر من قصة، خاصة حين نشرت الصحف النبأ، وقدمته بقولها:

(قبل أيام قرر مجلس الوزراء العراقي تخصيص راتب تقاعدي بمبلغ مائة دينار شهرياً للأستاذ احمد الصافي النجفي. والحق أن مجرد التفكير من قبل رئيس الوزارة العراقية ومن قبل سفير العراق في لبنان في مثل هذه المبادرة لهو من الأمور التي تستحق كل ثناء وشكر. ولكن للصافي مزاجاً خاصاً يجعله ينظر إلى مثل هذه الأمور نظرة خاصة. وكيفما كان الأمر فقد قبل الصافي المبلغ على أساس أن رفضه قد يدل على عدم تقدير منه للروح الطيبة التي حملت الحكومة العراقية على التفكير في أمره، فقبله شاكراً الدواعي الروحية وليس المال الذي لم يعتد أن يقيم له وزناً طوال حياته، وحتى في أضيق الأوقات. وقد هنأه من سمع بالخبر، وقال له أحدهم على سبيل الدعابة:

إنه قد أصبح لنا بعد هذا اليوم مآمل حين نريد أن نستلف منك ما نحتاج إليه، ما دمت قد أصبحت غنياً. فأجابه الصافي على دعابته قائلاً:

- ويلك قل لي أهو راتب تقاعد ذا؟ أم بنك تسليف لتطمع في أن تستلف منه نقوداً؟. بعد نشر الخبر بأيام قليلة، وكنا الأديب رثيف الخوري وأنا مع الصافي في مقهى فلسطين، فإذا بالصافي يستل من جيبه بقايا صحيفة كتب على أطرافها أبياتاً راح يتلوها أمامنا، وأذكر من أبياتها:

لم يزدني المال إذ جاء غنى
كنت أغنى الناس إذ كنت فقيراً
كم أتاني المال لم أعبأ به
هارباً منه ولم أملك نقيراً
هازيء فقري بأنواع الغنى
يحسب المعتز بالمال حقيراً
اسأل المال الذي قد سركم
كيف في اليوم لم يبعث سروراً
ولماذا غرّكم إذ جاءكم
ولماذا في لم يبعث غروراً
أي سحر فيه أعمى منكم
عن سبيل الحق من كان بصيراً
ها أنا باقي على ما كنته
يكبر المال امرئاً كان صغيراً
وصغير النفس من هنأني
حاسباً مالا أتى شيئاً خطيراً
ليس مالي فضة أو ذهباً
مالي الفكر الذي عزّ نظيراً
مالي الخير الذي أعمله
مالي السعي الذي يرضي الضميراً

مالي النور الذي أرسله
يبدل الظلمة في الأفكار نورا
مالي الوحي الذي يلهمني
مالي الشعر الذي يحيي الشعورا

في مقاهي بيروت

لم أكن أذهب إلى مقهى (الحاج داوود) كي أدخل النرجيلة،
وأكل السمك، وأغسل يدي بالطاسة، والليف البلدي! وإنما كان
طبيعياً أن أجد وراء القصد صحافة وحديثاً أدبياً، ومحدثاً يستأهل
كل هذا.

كانت الرحلة للجلوس مع الشاعر تمرّ بمشوار لا يخلو من
المتاعب.. أبداً أولاً بسؤال صاحب مقهى الحاوي في (البرج)،
فيقول أسأل عنه ناحية البحر! وأهتدي إلى بائع صحف قديم
فيدلني على صديق له علّه يعرف! أبحث عن هذا الصديق بين
ساحة البرج والنورماندي فلا أجده.. أعود إلى بائع الجرائد،
فيقول لي وعلائم الفرخ بادية على وجهه:

- الآن وصل صاحبك الشاعر إلى مقهى (الحاج داوود)، فإذا لم
تجده هناك فستجده في المقهى المجاور (البحرين)!

هناك في مقهى (الحاج داوود) كنا نلتقي ونتحدث، ونمضي
الساعات الطويلة. أحمد الصافي النجفي ليس شاعراً فقط، بل
محدث من طراز رفيع، ومع أنه خسر وزنه وصحته، وثلثي بصره،
فإنه يللم وهو يتحدث البقية الباقية من أيامه على طيف أنوف كله
مكرمات، وإباء، ومروءات، كأني به يعيد على مسمعي حواراً جرى
بين (فولتير) والمرابي!

المرابي: لقد طال وقوفي، وتعب المال بين يدي!

فولتير: لقد أزعجني وقوفك.. وحجب عني طيفك نور الشمس!
رفض أحمد الصافي النجفي الهبات أياً كان مصدرها! رفضها

من حكام، وأمراء، وسلاطين! ظفر ذات يوم بثروة نقدية تقدر بالآلاف من صديقه الثري عبد اللطيف العثمان فردّها إليه بصحبة بيتين من الشعر يقول فيهما:

أنا حسبي ثروة من أدبي
قد كفتني عن طلاب الذهب
فليعش جيبي فقيراً إنما
فقر جيبي ثروة للأدب

حدث مرة أن كان الشاعر مصطفى في قرية بقين، وكان الرئيس شكري القوتلي مصطفى في (الزبداني). فطلب مني دعوة الصافي للغداء عنده، وهناك وبعد تناول الغداء طلب مني الرئيس القوتلي أن أسلمه عباءة كان القوتلي قد اصطحبها معه من السعودية فقلت:

- يا فخامة الرئيس الأفضل أن تقدمها له بنفسك لأسباب ستعرفها وأنت تعطيه العباءة. وحين قدّم القوتلي العباءة للصافي مع مقدمة يرغبه في حسنّها وقيمتها، ضحك الصافي وقال للرئيس القوتلي:

- اختر يا فخامة الرئيس بيني وبين العباءة.. فإذا كنت تريدني أن أقبلها هدية منك فإنك ستخسرني ولن ترى وجهي بعد الآن، وإذا كان العكس فأعد العباءة إلى مخبئها وستظل تراني..

ولكنه، في أواسط نيسان (إبريل) من عام ١٩٧٠، وتحت وطأة السن والمرض استسلم للقدر فقد رضي بمنحة ضئيلة، راتباً تقاعدياً من وزارة المعارف العراقية تصله في ختام كل شهر بالطرق الدبلوماسية، وحسب الأصول! وهو - على رغم ضآلتها - مكثف بها، رافض كل مسعى لزيادتها. وحين كانت تصله ينتظرني بصفتي (مدير عام عموم أموال الصافي) لتوزيعها وتحديد وجهة صرفها. نصفها أو أقل بقليل يذهب لمالك الغرفة التي يقطن فيها في محلة (السيار) بالأشرفية، ونصف المتبقي يذهب طعماً لجيوب أصحاب الصيدليات! والباقي اليسير لأقداح الشاي، ومناديل

الودق، و(البخشيش). أما الغداء والسوائل فلا حاجة لاحشائه بها إلا بمقدار ما يحتاجه الرضيع الفطيم من نزر قليل! حليب، كعك، زيتون أخضر، منقوشة توضع في الجيب حتى تُقَرِّمِدَ، وفاكهة لم يول موسمها بعد!

هذا كل شيء، وعليكم السلام..!

والسلام على هذا الشاعر العصبي، المتهمك، الجارح، الذي استطاع بشعره أن يخرج من حيز الصالونات، إلى الهواء النقي فيتشرب العافية، والخير، والبطولات! كان حبه للواقع الذي في يده يفوق كل مطامعه وأحلامه!

كان الصافي النجفي عصبياً، يصل أحياناً إلى درجة الجنون! إذا تكلم تطايرت الكلمات من فمه كالطلقات. كان شرطه الوحيد أن يتكلم، ويستفيض، ويفسر، ويشرح دون مسوغ يبرر للسامع حق مقاطعته له أو حق السؤال! وعندما كان ينتهي من كلامه يلتفت إلى ويقول:

- امستعد للقسم بأمك وأبيك وسلالة ذريتك؟

ويرتفع صوت خفيف من قرار حنجرتي يقول له:

- على الرأس والعين.. و..!

ويلتفت الشاعر الغاضب ناحية صوتي، ويصيح:

- إياك أن تتحدث، أو تنشر ما أوصيك بعدم إذاعته.. (إني

اندلّك) - أي أعرفك - ويمد يده إلى الوريقات أمامي، يقبض على

انفاسها، ويكاد أن يخنقها، وأصرخ:

- بعرضك.. لا تفعل!

ويضحك الصافي، وهو يتفرج على أسارير وجهي تنقبض فجأة،

وترتخي فجأة، ويقول بنشوة المنتصر، وشهودي هنا نزار الزين

صاحب مجلة العرفان، والشيخ عبد الله بالخير وأكرم زعيتر وآخر

لا أعرف اسمه:

- هه.. موافق إذن موافق.

وأصرخ ويده تضغط على يدي:

- بروح أبي وأمك موافق!

الشاعر متهمك! تحسس ألوان الحياة مستعيناً بما في نفسه
الموهوبة من حسّ مرهف حاد يكاد يخترق جدران النفوس ليستقر
في أعماقها! وأنشد الحضور قصيدة (الحسناء تقود سيارتها
الحسناء)، تجمد سمعي مرة بعد مرة على أبيات في كلماتها أروع
وصف، وأخف روح!

غانية فاقت على جيلها
وحق قراني وإنجيلها
سافت (أترمبيلاً) رقيقاً لها
يجري رخاء وفق مأمولها
رقيق سير، صوته كالغنا
بأعذب النغمة مقبولها
كأنه الطيف إذا ما سرى
في ساحر المقلّة مكحولها
الطف ما قد صيغ من جيله
فيه التي الطف من جيلها
آخر (موديل) جمال كما
(موديله) حلو (كموديلها)
نشوان من نفحة أردافها
يختال، إذ خصّ بتفضيلها
أضحى مليكاً بين أترابه
متوجاً منها بإكليلها
أحيته فهي الروح حلت به
يلمس كفيها ومنديلها
مرت كما مرت بنا نسمة
من عاطر الأزهار مطلولها
تعلق القلب بها، فاغتندي
يحوم كالطير لتقبيلها

أمرى ركوباً لي في جنبها
أو لا فدهما بأوتومبيلها
وسمعت نفسي تصرخ في أوج نشوتها:
- زدنا يا أستاذ، بالله عليك زدنا يا نجفي، وأيد أكرم زعيتري،
فقال الصافي:

تقولين خذ رسمي لتزين غرفة
وهل زينة في غرفتي منك لي أحلى
يمثل رسم منك جزءاً محبباً
ومن يقتني جزءاً ولا يطلب الكلاً
فرسمك مرآة ونفسي ولوعة
بصاحبة المرأة أسألها الوصلاً
ورسمك بدر منك يلمس نوره
فيا حبذا شمس بها مهجتي تصل
أكرم منك الرسم ليس يجيبنني
فأحسبه غضبان يحمل لي غلاً
إذن فابعثي إن شئت رسمك ناطقاً
يقابلني عطفاً، يبادلني قولاً
خيالك لا يغني محب حقيقة
وإنك شمس لا أريد لها ظلاً

قلت للصافي: والدنيا ربيع، وزهر، وعيد:
- هل تعرف المثل الذي يقول: إن الحب في فرنسا كالكوميديا،
وفي إنكلترا كالتراجيديا، وفي إيطاليا كالأوبرا، ولكنه في ألمانيا تمثيل
شجوي أشبه برواية تتخللها مفاجآت محزنة، وألحان مؤثرة؟
قال: بل لعل أصدق ما طرق سمعي عن الحب هو قول (انتوني
بيرت): - إن أول تنهيدة حب معناها آخر حشرة... للحكمة.

قال أكرم زعيتري: إن هذا الكلام لا يقوله إلا الذين استيقظوا من
أحلام الحب، أما الذين يعيشون حبهم فإنهم يعتقدون أن حكمة
الدنيا كلها تمشي وراء هذا الحب! ترى هل أنت يا أستاذ من الذين

استيقظوا.. أم من الذين ما زالوا يعيشون الحب؟
قال الصافي وقد عادت عيناه تتعلقان بأمواج البحر وهي تداعب
في مدها الحصى، والشباك، وأحلام المستحمين:

حاولت أن أدفن الحب بالزواج، فوجدته يهرب مني، وتحتويني
الحياة بكل إيقاعاتها وويلاتها! عذاب، تعذيب، تشريد، سجن،
مرض وعياء؟! ضربات الزمن لا تقتل الأجسام فحسب، بل تقتل
الأرواح، تقتل الأعصاب... تقتل العقول أحياناً؟

أعيش وليس لي بيت وشعري
يعيش وبيته سامي العماد

فأدعوا: ويحكم أنهكتموني
وأفنيتم طريقي مع تلادي
نفدت وما لكم يوماً نفاذ

أجيش الشعر أم جيش الجراد؟
قد اخترت الترهيب خوف ولد
فكنتم شر ولد، بل: أعادي

سأهجر أمكم لأراح منكم
وأدعو صارخاً في كل ناد
عروس الشعر طالقة ثلاثاً

وإن عاشت تهيم بكل واد
قلت متخابثاً:

- يا لحسن حظهن؟

وسمعت في صدره نفساً طويلاً قبل أن (يتخابث) هو الآخر
ويجيب:

- ماذا تعني بالضبط؟ قلت بهدوء:

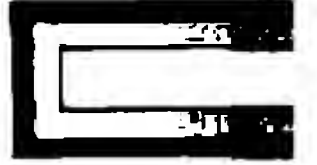
- زواج، وبنون، وبنات.. ألا تصارحني؟

ولم يدعني أكمل فخطبني بلغة (عمر بن أبي ربيعة) شاعر
الحب، والتجربة، وتعدد الزوجات:

يقولون في التزويج للمرء صحة
تزوج لتشفى من سقام واحزان
فقلت: ولو أشفى كما قد زعثمو
فإن زواجي ذاته مرض ثان!
ولكن الشاعر اللورد بايرون قهار، يزرع في داخل نفوسنا الأسى
والحزن عندما يقول:
- للشباب عمر، ورزق، وموقعة.. إن فانتك، فقد عشت بعدها على
هامش الحياة، مكدوداً، ومشلولاً ومطعوناً في خرزات ظهرك؟ -
قال وهو يحسم الموضوع بخبرة الثمانين هولاً وباعاً:
سني بروحي لا بعد سنين
فلأسخرن غداً من التسعين
عمري إلى السبعين، يركض مسرعاً
والروح ثابتة على العشرين
وضحك، وهو يعلق:
- أمل أن يفهم بالسبعين هنا.. التي ولّت! عندي الآن كل ما في
الثمانين من ثقل ووهن وعياء!
وسألته:
- قل لي متى تهبط ملائكة الشعر على قريحة الشاعر، متى يهجم
لها الصافي؟
قال وهو يرسل الأنات مسفوحة.. على أعتاب حديث عذب،
وطيب، وحلو:
- تأتي شياطين شعري لا ملائكته في أوقات لا أستطيع
تحديدتها.. للشعر عندي مواسم فقد تمر بين الموسم والموسم فترات
قد تبلغ السنوات الأربع لا أستطيع أثناءها نظم بيت واحد من
الشعر، أما إذا جاء الموسم فربما نظمت في مدى ثلاثة أيام ديواناً
كاملاً لا أعرف كيف جاء، ولماذا جاء، وقد قلت حقاً عندما أعلنت في
أوائل أشعاري:

لا أطيق النظم إن شئت
وإن أجهدت فكري

الصافي وشعراء السجون



قد يجهل الكثيرون أن الصافي أمضى مدة ثلاثة وأربعين يوماً في إدارة الأمن العام الإفرنسية ببيروت بأمر السلطات الإنكليزية سنة ١٩٤١ عند دخولها لبنان. وقد حرص الشاعر على إبقاء حصيلة أشعاره في السجن بعيدة عن أسنان المطبعة لأسباب لم يفصح عنها في حينه. وقد كنت أدون كل ما أسمعه منه من هذا الشعر في لحظته، وحين أقدم على نشر دواوينه الشعرية العشرة نحى عنها (شعر السجن) دون أن يفصح لي عن السبب، مكتفياً بترديد هذه الأبيات:

لئن أسجن فما الأقفاص إلا

لليث الغاب، أو للعندليب

ألا يا بلبلاً سجنوك ظلماً

فنحت لفرقة الفصن الرطيب

ويا ليث الشرى سجنوك مثلي

لذن خافوا وثوبك أو وثوبي!

وحدث يوماً أن استضيفته في منزلي ببلودان وتعمدت أن أحصل منه على بعض ما قاله في السجن، فإذا به يقترح عليّ أن أجمع أقواله وما حفظه من قراءاته عن أقوال الشعراء الذين سجنوا، وحكاياتهم مع سجنائهم.. وقد استهوتني الفكرة، وبقينا قرابة ٢٠ يوماً في هذا المصيف، أنا أسجل وهو يتحدث، ثم نعيد النظر معاً في كل ما دوناه.

وحين بدأت أجمع ذكرياتي عن أحمد الصافي النجفي عثرت على بعض الأوراق القديمة الممزقة، وقد افترسها الغبار. فأعدت ترتيبها من جديد ورحت أعيد تنسيقها وتبويبها لكي تتناسب مع ذكراه.

افتتح الصافي حديثه عن شعراء السجون بقوله:
سَجَلْ عندك هذه الأبيات لناظم حكمت الذي سجن اثني عشر
عاماً.

فإذا لم أحترق أنا
ولم تحترق أنت
ولم يحترق هو
فكيف يخرج من هذه الظلمات نور؟

عدي بن زيد

يقول الصافي: لعل أول شاعر عربي في قافلة السجناء ممن
ذكرهم تاريخ الأدب: عدي بن زيد. كان تميمياً نصرانياً من أهل
الحيرة، ولذلك عرف بالعبادي^(١). توفي في الجاهلية حوالي السنة
٥٩٠ م، قبل الهجرة بنحو خمسة وثلاثين عاماً. وكان من جلة رجال
الفروسية في عصره. اتقن الفارسية مع العربية وبرع في ركوب
الخيول والرمي بالنشاب، واللعب بالصوالجة. وتولى المناصب الرفيعة
في بلاط الأكاسرة في المدائن ثم في بلاط المناذرة في الحيرة، فكتب
بالعربية في ديوان كسرى أنوشروان، ثم في ديوان ابنه هرمز، حتى
استوزره الملك النعمان وزوجه ابنته هنداً. ولكن الوشائيات
والدسائس، أوغرت عليه صدر الملك فاعتقله وحبسه في
(الصنن)^(٢)، ثم قتله قتلة وحشية. وقد نظم عدي خير شعره في
هذه المدة بين دخوله السجن ومصرعه. وشعره كله شكوى موجعة
يرفعها إلى النعمان، وتذكير له بما خدمه فأخلص في خدمته وتأكيد

(١) العباديون: لفظ أطلق على نصارى الحيرة.

(٢) من الأماكن القريبة إلى الحيرة، ولا يزال تلاً مرتفعاً قائماً إلى الآن بالقرب من الحيرة
(الصنن)، وهذا الصنن هو الذي يقول فيه الشاعر الجاهلي وهو يتمنى نزوة مترفة من
العهد القديم حيث يقول:

ليت شعري متى تخب بي النسا	قة بين السدير فالصنن
محقباً ركوة وخبز رفاق	وبقولا وقطعة من نون

لبراءته مما نسب إليه. ويجيد عدي في هذه الأغراض كلها، فيقول
في قصيدة بائية:

ألا من مبلغ النعمان عني
وقد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسلة وقيداً

وغلاً، والبيان لدى الطبيب
أذاك بأنني قد طال حبسي
ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتي مقفر الأرجاء فيه

أرامل قد هلك من النحيب
فإن أظلم فقد عاقبتموني

وأن أظلم فذلك من نصيبي

ويقول واصفاً زيارة أمه له في السجن ومحرضاً أهله على
إنقاذه:

ولقد ساعني زيارة ذي ق
ربي حبيب لودنا مشتاق
ساء ما بنا تبين في الأيـ

دي وإشفاقها إلى الأعناق
فأذهبي يا أميم غير بعيد

لا يؤاتي العناق من في الوثاق
وأذهبي يا أميم إن يشأ الله

ه ينفس من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيل الذـ

اس، لا تمنع الحتوف الرواقي!
يا أبا مسهر فأبلغ رسولاً

إخوتي إن أتيت صحن العراق
أبلغن عامراً وأبلغ أخاه

أنني موثق شديد وثاقي

في حديد مضاعف وغلول
وثياب منضحات خلاق

فاركبوا في الحزام فكوا أخابكم
إن عيراً قد جهزت لانطلاق
ولكن أجود ما نرى عند عدي من شعر نظمه في السجن ذاك
الذي يخلص فيه إلى استعراض عز الملوك وجبروتهم، وكيف
انقرضوا على ثقلب الزمن وأحداثه، فيقول:
أين كسرى الملوك، كس
رى أنوشروان، أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ
روم لم يبق منهم مذكور
إلى قوله:

ثم صاروا كأنهم ورق جـ
ف فآلوت به الصبا والدبور
وفي هذا البيت الأخير صورة رائعة لتمثيل فناء الأشياء.

الخطبة

فإذا أقبلنا على عصر الراشدين لقينا في قافلة الشعراء الذين
سجنوا، ونظموا في السجن، شاعراً محبب الشخصية على علاقتها،
هو الخطيب. اعتقله الفاروق عمر بن الخطاب وأودعه السجن
عقوبة له على ما نهش بلسانه من أعراض بعض القوم طمعاً في
كسب العطاء، فأنشد الخطيب لهذه المناسبة أبياتاً رقيقة ذكر فيها
بنياته، وما يقاسين من حرمان وهوان، واستعطف الخليفة حتى
رحمه وأطلقه. وهذه أبيات الخطيب:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
أهلي فداؤك كم بيني وبينهم
من عرض داوية يعمى بها الخبر

القيت كاسبهم في قعر مظلمة

فاغفر عليك سلام الله يا عمرا

وما كان مثل هذا الشعر العذب ليقطر من نفس الحطينة لولا
بنياته ولولا أن منعه السجن عنهن!

يزيد بن مفرغ

ولكننا حين ندخل العصر الأموي نظفر من شعر السجون بما هو
حقاً أوفر مادة وأنفس معنى من كل الذي سبق لنا أن حظينا به.
ولنكتف بشاعر واحد يعدّ من الفحول في هذا الباب، نقصد يزيد بن
مفرغ، ويقول الصافي:

لا تستغرب يا أخي هذا الاسم ولك أن تعجب كيف عدته من
فحول شعراء السجون. غير أنك لن تلبث حتى تقتنع بصواب رأيي
فيه. فإن الخمول الذي أحاط، من بعد، باسم يزيد بن مفرغ إنما
كان لسخط الأوساط الحاكمة عليه. وإن فقدان شعره إلا بقية
مذرذرة في بطون الكتب، أشبه بأخشاب السفينة المحطمة - إنما
كان كذلك نتيجة لهذا السخط الرسمي الذي صرف عنه الرواة
خشية الحاكمين أو مسايرة لهم.

كان يزيد هذا، حميرياً من عرب اليمن، اتصل بواحد من أبناء
زياد بن أبيه اسمه (عباد). وليّ عباد إقليم (سجستان) فصحبه
الشاعر إلى موضع عمله. ولكن الجو سرعان ما فسد بين الرجلين،
فعباد وال، وشقيقه عبيد الله وال هو الآخر يتصرف بشؤون
العراق، ومرتبة زياد بن أبيه وأبناء زياد معروفة في الدولة الأموية
بعد أن سبق لمعاوية بن أبي سفيان أن اعترف بزياد أخاً له. وما
كان يزيد بن مفرغ ليرضى من عباد أن يستطيل عليه أو يهمله،
فهجاه وسخر من لحيته وكانت عظيمة جداً كأنها جوالق، دخلتها
الريح يوماً فنقشتها فقال فيها ابن مفرغ:

ألا ليت اللحي كانت حشيشاً

فنعلفها خيول المسلمين!

فلما سمع عباد بالهزاء أضمر له الشر، وحرك على الشاعر قوماً لهم

عليه دين فرفعوا عليه الدعوى، فحبسه عباد حتى يدفع الدين، وإذا بالشاعر يضطر أن يبيع فرسه وسلاحه وأثاثه وغلاماً وجارية كان يهواها. واشترى عباد الغلام والجارية. وأمر بتوزيع مال الشاعر على دائنيه. ثم أطلق الشاعر ليعود من حيث أتى خاوي الوفاض بادي الإنفاض.

فانطلق ابن مفرغ إلى العراق ثم إلى الشام يتنقل في المدن ويرسل الأشعار في هجاء زياد وأولاده.

وتحدث الناس كثيراً بهذا الهجاء، وبلغ مسامع عبيد الله بن زياد في البصرة، فبث عيونه وأعوانه في طلب الشاعر. ولم يكن يزيد يجهل ما ينتظره إذا وقع في قبضة عبيد الله. فأقام هارباً ما وسعه الهرب. ثم سعى في أن يستجير بهذا أو ذاك من وجوه زمانه، وكلهم يخشى أن يجيره على عبيد الله، حتى لقي آخر الأمر رجلاً يقال له المنذر العبدى كانت بنته زوجة لعبيد الله. على أن عبيد الله لم يكرم عمه فكبس داره، وأخرج الشاعر فعذبه بألوان العذاب وشهره بأقبح ضروب التشهير. قرنه بهرة وخنزيرة وأطافه في الأسواق ومن حوله الصبية يعبثون به، وسجنه مدة وأشبع السياط وأطعم حديد القيد من لحمه وكسر أسنانه، ثم أعاده إلى أخيه عباد في سجستان.

ومما يحكى أن الشاعر كان قد كتب بالفحم على جدران بعض الحانات التي مرّ بها في طريق عودته إلى سجستان أشعاراً من هجوه في زياد وأولاده، فأمره من كان يخفّره من شرطة عبيد الله أن يحكّها بأظافره فحكّها حتى برئت وتهرأت أطراف أنامله وبضت دماً. فاستعظمت اليمانية هذا الانتقام البشع، ورفعوا الأمر إلى معاوية في الشام. فاستقدم يزيد بن مفرغ وعنفه ثم خلى سبيله وخيّره في المقام فاختر أرض الموصل وبها كانت وفاته سنة ٦٩ هـ ٦٨٨ م.

ويقول الصافي: أما شعره في السجن فلم أعثر عليه، وقد اطلعت في طهران على مخطوطة حوت شعره وهو في سجن البصرة لدى

عبيد الله بن زياد. وهي قصيدة قوية في معناها، تشفت عما أوتي هذا الشاعر المتمرد من قوة النفس وتحدي الاضطهاد. تساءل في مطلعها كيف نؤم الأسير في قيوده، ثم ذكر جاريته التي حيل بينه وبينها، وفرسه وسلاحه، فتألم للذكرى، وثار به إباؤه فنفى أن يكون أتى أمراً دنياً، ثم أسرع إلى مخاطبة الوالي عبيد الله فعيره كيف نكل به ذلك التنكيل القبيح، وانهذه بأن أثار ذلك التنكيل كله عرض يزول بينما يخلد الشعر الذي هجاه به وترسخ وصمته في ذكراه أبد الدهر. قال يزيد بن مفرغ:

دار سلمى بالخبت ذي الأطلال
كيف نوم الأسير في الأغلال
أين مني السلام من بعد نأي؟
فارجعي لي تحيتي وسؤالي!
أين مني نجائبي وجيادي
وغزالي؟ سقى الآله غزالي!
أين؟ لا أين، جنّتي وسلاحي
ومطايا سيرتها لارتحالي
لا وصومي لرَبنا وزكاتي
وصلاتي أدعو بها وابتهالي
ما أتيت الغداة أمراً دنياً
ولدى الله كابر الأعمال
أيها المالك المرهب بالقتل
بلغت النكال كل النكال
فاخش ناراً تشوي الوجوه ويوماً
يقذف الناس بالدواهي الثقال
قد تعديت في القصاص وأدرك
ست ذحولاً لمعشر قتال
وكسرت السنّ الصحيحة مني
لا تذلني فمكرر إذلال

وقرنتم مع الخنازير هرا
ويميني مفلولة وشمالي
وأطلتم مع العقوبة سجنأ
فكم السجن؟ أو متى إرسالي؟
يفسل الماء ما صنعت وقولي
راسخ منك في العظام البوالي

* * *

ليت أني كنت الحليف للخم
وجذام وطبيء الأجيال
بدلاً من عصابة من قريش
أسلموني للخصم عند النضال
خذلوني وهم لذاك دعوني
ليس حامي الذمار بالخذال
ويبدو من الثلاثة الأبيات الأخيرة أن الشاعر أقدم على هجو
زياد وأولاده بإيعاز وتأيد من قريش. ولكن قريشاً تخلت عنه
عندما ظفر به الوالي وصبّ عليه عذابه.
ويمضي الصافي في روايته قائلاً:
فهذه هي قصيدة ابن مفرّغ: مثال نادر من شعر السجون في
الأدب العربي القديم، لأنها تشفّ عن نغمة جديدة غير نغمة
الانكسار والاستعطاف كما تشفّ عن تعزية النفس بأن كل شيء
زائل وكل سرور صائر إلى نكد وبلاء.

عبد الله الطالبي

ويقول الصافي: وفي الفترة بين انهيار الأمويين واستتباب الأمر
للعباسيين يمرّ شاعر عربي في قافلة شعراء السجون ما ينبغي لنا
أن ننساه، ذلك هو عبد الله الطالبي من أحفاد جعفر الطيار شقيق
الإمام عليّ كرم الله وجهه.
لم يكن عبد الله هذا رجلاً احترف الشعر، وإنما كان فارساً

زعيماً ظهر بالكوفة فخلع طاعة الأمويين، فقاتله هؤلاء حتى ألجأوه إلى بلاد فارس حيث استقل بالسيادة أمداً من الدهر وجبي له الخراج وهو بمدينة اصطخر. ولكن ابن هبيرة، والي الأمويين على العراق، جرّد عليه حملة أكرهته على الارتداد إلى مدينة (هراة). فلما انقرضت دولة الأمويين أمر أبو مسلم الخراساني بأخذه وقتله لأنه أبا الانصياع للعباسيين.. وأكبر الظن أن هذه الأبيات القليلة، التي انحدرت إلينا عن عبد الله الطالبي في السجن فانتشرت في الآفاق وخلدت شهرتها على الأجيال، إنما قالها وهو سجين في هراة بأمر من أبي مسلم قبل أن قرّر الرأي على قتله. ومن هنا كانت هذه الأبيات تشتمل على لوعة ووحشة قل أن عرفناهما في شعر السجون لدى العرب. فقد ينبغي لنا أن نذكر أن أبا مسلم الخراساني كان حرباً على هؤلاء الأمويين الذين جرّد عبد الله الطالبي سيفه لحربهم. من هنا غلبت على أبيات عبد الله تلك اللوعة والوحشة، وتلك الكآبة العميقة التي لا تدري من تناشد بعد أن لقيت الشرّ ممن تنتظر منهم الخير، فهي إذا تناشد المروءة والإنسانية إطلاقاً:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا دخل السجّان يوماً لحاجة
عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا، فجّل حديثنا
إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت لم تأت عجلي وأبطأت
وإن قبحت لم تحتبس وأت عجلي
طوى دوننا الأخبار سجن ممنوع
له حارس تهذا العيون ولا يهدا
قبرنا ولم ندفن ونحن بمعزل
عن الناس لا نخشى فنغشى ولا نغشى

ألا أحد يأوي لأهل محلة

مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا

ويقول الصافي وهو يشرح معنى هذه الأبيات: وأنت في غنى عن أن أدلك على مكان أسرار الجمال في هذا القصيد، وعلى عمقه في تمثيل نفسية أولئك السجناء الذين طغى عليهم صقيع من القنوط صرع كل أثر للرجاء في صدورهم. فقله: (عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا)، وقله: (ونفرح بالرؤيا إلخ...) رائع حقاً تختلج له أغوار الضمائر.

علي بن الجهم

ويقول الصافي: وكان ابن الجهم هذا عربياً من أهل بغداد، عاصر أبا تمام وتصافيا الود. وفيه يقول أبو تمام أبياته المشهورة في رثائه:

أعلي يا ابن الجهم إنك دفت لي
سماً وخمراً في الزلال البارد
لا تهلكن أبداً ولا تبعد فما
أخلاقك الخضر الربي بأبعاد
إن يختلف ماء الوصال فماؤنا
عذب تحذر من غمام واحد
أو يختلف نسب يؤلف بيننا
أدب أقمناء مقام الوالد

وبرغم رقة ابن الجهم والدمائة التي تظهر في غزله، فلقد كان مرّ النفس صعب الشكيمة عظيم الشجاعة. فلم يكن من طبعه أن يتحمل ضغط السلطان ولا إذلاله. ف وقعت النفرة بينه وبين الخليفة المتوكل فحبسه. ولقي ابن الجهم مصرعه في معركة عند حلب نشبت بينه وبين بعض الأعراب حين تعرضوا للقافلة التي كان مسافراً فيها سنة ٨٦٣ م (منتصف القرن الثالث للهجرة).

كانت قصيدته رائعة تلك التي سكبها ابن الجهم يوم حبسه المتوكل، تزخر أبياتها بقوة من عزيمة الشاعر وتشمخ بعلو من

شمم روحه. وفيها مثال من أسلوب المناقشة الذي شاع في الشعر العربي بشيوع الفلسفة في ذلك العصر مع تعمق في الفكر يبلغ بالشاعر أن يلمس العلاقة بين الأضداد في الوجود، وكيف ينقلب الضد إلى ضد ويتولد ضد من ضد.

لا ينسحق ابن الجهم تحت وطأة هذا السجن الذي حاصره بجدرانها، وغمه بظلمته. لا، ولا يسترحم ولا ييأس. ذلك ما تمنعه منه نفسه الأبية. ولكنه يجبه الذين عيروه بالحبس فيقول لهم: إذا حبست فهل رأيت سيفاً لا يغمد؟ وهل رأيت أسداً لا يأوي إلى عرينه كبراً بينما تسرح أوباش الحيوانات على الأبواب لكسب القوت؟ ثم يزداد الشاعر تعمقاً فيهتدي بثاقب فكره إلى منافع للسجن وظلمته ومنافع للعذاب ومحنته. فهذا الحجر الصلد الذي تكمن فيه النار لا تنقدح منه ناره إلا بالحك العنيف، وهذا البدر لولا أنه ينحجب لما تجدد وعاد بهياً مشرقاً. وهذه الرماح لولا أنها تحمي بالنيران وتطرق لما استقامت ولما أرفف سنانها. وهذا العيش أحوال فمن نعيم ومن شقاء، ولربما كان شقاؤه سبيلاً إلى نعيمه. فلا سبب لليأس ما دام مع اليوم غد. ولا داعي للخجل والشعور بالمعزة ما دمت لم تحبس لدناءة ارتكبتها.

وعلى هذا النحو يمضي ابن الجهم حتى يخلص إلى مخاطبة المتوكل وقاضيه أحمد بن أبي دؤاد. فلا يبخل عليه بكلمة مدح. ولكنه إلى ذلك يعاتبهما عتاباً فيه تأنيب وتوبيخ، ويطالبهما بالإنصاف مطالبة من يعلم أن له حقاً. فيقول للمتوكل:

ما دمت ابن عم النبي محمد فأنت أولى باتباع شرعته فلا تقبل بظلم الناس. ويقول لابن أبي دؤاد:

كيف قضيت علينا بشهادة من حضر ونحن غائبون، ولو أننا حضرنا لأظهرنا لك الطريق الأقوم. وفي كل هذا معاتبة، بل تأنيب وتوبيخ. وفيه مطالبة بالإنصاف يجهر بها من يعلم أن له حقاً يتقوى به على هذا الإفحام.

وهذه قصيدة ابن الجهم كما أملاها علي الصافي:

قالوا حبست، فقلت ليس بضائري
حبسي وأي مهند لا يفمده؟
أو ما رايت الليث يألف غيله
كبراً وأوباش السباع تردّد
والنار في أحجارها مخبوءة
لا تصطلي ما لم تثرها الأزند
والبدر يدركه السرار فتنجلي
أيامه وكأنه يتجدد
والزاغبية لا يقيم كعوبها
إلا الثقاف وجذوة تتوقد
لا يؤيسنك من تفرّج كربة
خطب أذاك به الزمان الأنكد
فلكل حال معقب ولربما
أجلى لك المكروه عما تحمد
صبراً فإن اليوم يعقبه غد
ويد الخلافة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنية
شنعاء نعم المنزل المتورد
بيت يجدد للكريم كرامة
ويزار فيه ولا يزور ويحمد!
أبلغ أمير المؤمنين ودونه
خوف العدا ومخاوف لا تنفد
أنتم بنو عم النبي محمد
أولى بما شرع النبي محمد
يا أحمد بن أبي دواد إنما
تدعى لكل كريمة يا أحمد
إن الذين سعوا إليك بباطل
أعداء نعمتك التي لا تجدد

شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا

فيما، وليس كفائب من يشهد

لو يجمع الخصماء عندك منزل

يوماً لبان لك الطريق الأرشد

وقد عارض هذه القصيدة شاعر يقال له (عاصم بن محمد الكاتب) حين حبسه ابن أبي دلف العجلي القائد العباسي الشهير، فلم يصنع في معارضتها شيئاً، وإنما ذكر بلاء السجن، ونكد العيش فيه، وفرغ إلى استجداء الصفح والمغفرة بما لا يخرج عن المعاني التقليدية المتدايسة.

وهنا، فلنثبت أن ابن الجهم إنما بلغ بقصيدته ذروة المنهج الذي اختطه يزيد بن مفرغ في شعر السجون في الأدب القديم، كما بلغ عبد الله الطالبي ذروة المنهج الآخر الذي اختطه عدي بن زيد العبادي. ويفترق المنهجان في أن أحدهما يقابل السجن والعسف بروح متمردة متحدية، بينما يقابله المنهج الآخر بروح منكسرة تلتمس العفو والرضى.

ابن المعتز

ويستطرد الصافي في حديثه عن شعر السجن فيقول:

ولابن المعتز أيضاً - وهو من العباسيين - شعر في السجن

يستحق أن نتوه به، إذ يقول:

مرت بنا سحراً طير فقلت لها:

طوباك، يا ليتني إياك طوباك!

وما كان ابن المعتز يرغب في الخلافة ولكن أنصاره حملوه على

قبولها بعد خلع المقتدر، غير أنه ما كاد يُبايع خليفة حتى وجد

نفسه سجيناً، ثم قتيلاً، فغنى شوقه اللاعج إلى الحرية.

أبو الطيب المتنبي

وإذا ذكر الشعراء الذين تمرسوا بالسجن ونظموا فيه فما

ينبغي لنا أن ننسى في القافلة أبا الطيب المتنبي. على أنه لم يعرف

السجن حقيقة بجدرانه القاتمة، وقيوده الثقيلة إلا في الدور الأول من حياته وعوده لم يصلب بعد، وعبقريته لم تتفجر ولم تصخب صخبها الأوقيانوسي. سجن أبو الطيب على يدي لؤلؤ الإخشيدى والي حمص، ويقال إنه كان قد ذاق السجن من قبل بالكوفة. لكن مهما يكن من شيء فإننا نجد أبا الطيب مقبلاً على سجنه بنفسه الذاهبة شموخاً في السماء. وكان له سجان، رجل يدعى أبا دلف يبدو أنه لطف بأبي الطيب. فنظم فيه أبو الطيب هذه الأبيات:

أهون بطول الثواء والتلف

والسجن والقيد يا أبا دلف

غير اختيار قبلت برك بي

والجوع يرضي الأسود بالجيف

كن أيها السجن كيف شئت فقد

وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكنائي فيك منقصة

لم يكن الدرّ ساكن الصدف!

ولقد يبحث المرء طويلاً عن شعر يصور هذه المأساة المفجعة التي تكره النفوس الكبيرة في أوقات المحنة، على أن ترضى ما لا ترضاه في العادة، فلا يجد ما يشبه قول أبي الطيب:

(والجوع يرضي الأسود بالجيف). ثم قد يبحث المرء طويلاً عن شعر يمثل التحدي للاضطهاد فلا يجد ما يضارع هذا الخطاب الذي فاه به أبو الطيب بصيغة الأمر ووجهه إلى السجن تعالياً واستخفافاً إذ قال:

(كن أيها السجن كيف شئت)، وأما اعتذاره لنفسه بأن السجن ليس منقصة لها (ما دام الدرّ ساكن الصدف) فإنه غاية الغاية في الروعة.

غير أن أبا الطيب في هذا الدور المبكر من حياته قبيل أن يجب عليه سجود الصلاة، كما يقول، ما لبث أن ضاق ذرعاً بالسجن وبابه الموصد، وما لبث أن برم صدره بهذا القيد الذي يعضه في

رجله وهذا الهزال الذي يستبد بجسمه الناحل، فشكا ذلك كله إلى الوالي واستعطفه بكلام نسبته إلى نفس أبي الطيب كنسبة مواء القطط إلى زئير الأسود:

أما لك رقي ومن شأنه
هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء
والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء
وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال
فقد صار مشيهما في القيود
تعجل في وجوب الحدود
وحدي قبل وجوب السجود!

لكن أبا الطيب إن لم يتمرس بالسجن حقيقة إلا في هذا الدور من حياته، فهذا أول الأمر بالقيء والسجّان وتحدي الاضطهاد ثم لانت قناته وتحطم عنقوانه، فإنه قد امتحن فيما بعد - وهو نزيل مصر - بضرب من الاعتقال شر من الحبس الحقيقي حين ضبطه كافر لا يأذن له بالرحيل ولا يلبي رغائبه. وفي هذه المرة لم يتحطم عنقوان أبي الطيب ولا لانت قناته بل أنشد في فترة هذا الاعتقال المعنوي قصائد ما ردّ بمثلها شاعر، ولا حرض بمثلها شاعر في الأدب العربي القديم على حاكم أساء إليه:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها
وقد بضمن وما تفنى العناقيد
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
يسيء بي فيه عبد وهو محمود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصود

أبو فراس الحمداني

ويقول الصافي وهو يحلّل شعر السجون في الأدب العربي:
يبقى شاعر واحد من شعرائنا القدامى أودث في موضوع
السجن قصائد كتب لها حظها في الخلود فما يسوغ لنا أن نغفله.
هو ذلك الأمير الفارس أبو فراس الحمداني. إلا أن شأنه يختلف
عن بقية شعراء السجن في سالف الأدب العربي. فإن أبا فراس لم
يسجنه خليفته، أو ملكه، أو واليه، بل وقع أسير حرب لدولة أجنبية
هي الدولة (البيزنطية)، وذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة. وفي
مدة أسره، الذي طال نحواً من سبع سنوات، سجنه البيزنطيون
وأخشنوا معاملته. وإشارة إلى ذلك يقول معاتباً ابن عمه:

يا واسع الدار كيف توسعها

ونحن في صخرة نزلزلها

وليست هذه (الصخرة التي يزلزلها) أبو فراس وأصحابه إلا
الأشغال الشاقة التي فرضت عليهم، أو القلعة التي حبسوا فيها،
قلعة خرشنة أو القسطنطينية نفسها.

أسر أبو فراس ووراءه أم عجوز في منبج حضنته يتيماً وفرغت
له همّها وقلبها فعلقها بما لم يعلق ولد أمه. وأسر أبو فراس وهو
يستميت في القتال تحت لواء الدولة الحمدانية وأميرها سيف الدولة
ابن عمه. فكان أقل ما ينتظره أن يسرع ابن عمه في بذل الفداء له
كيما يعود الفارس إلى أمه وإلى رفاقه في الجيش وإلى إخوانه في
مجالس الأدب فيستمتع بالحياة - وهو ما برح فتى يهوى متع
الحياة - ويواصل سيرته في الحرب وهو القائد الشجاع.

غير أن ابن عمه أبطأ وماطل في بذل الفداء، لم يصغ إلى شفاعته
الأخوان ولا رحم ضراعة الأم. ولأمر ما فعل سيف الدولة ما فعل.
فهل قصرت يده حقاً عن جمع المال لدفعه، أم رضي بتنحية أبي
فراس على هذا النحو لئلا يزاحم على الإمارة ابن سيف الدولة وولي
عهده أبا المعالي؟ لسنا ندري. ولكننا ندري أن أبا فراس أحس
جرحاً ممضاً يتفتح في دخيلة نفسه لهذا الإهمال والتقصير من

جانب ابن عمه. واشتاق أمه العجوز اشتياقاً محرقاً وحنّ إلى إخوانه وملاعب صباه ومسارح شبابه حنيناً لأعجاً مثيراً، فأرسل القصيدة تلو القصيدة إلى ابن عمه يشرح له سوء حاله في الأسر ويعاتبه عتاب صاحب الدالة، وصاحب الحق عليه. وأرسل القصيدة تلو القصيدة يدعو فيها أمه إلى الصبر والاعتصام بالإيمان، أو يذكر بها إخوانه الباعدين والبعد جفاء.

ولعل أبلغ قصيدة صور فيها أبو فراس شقاه وشقاء أصحابه في الأسر، وبلغ بها الغاية في قوة العتاب، لاميته التي مطلعها:

يا حسرة ما أكاد أحملها

آخرها مزعج وأولها

ومنها في عتاب سيف الدولة ولومه على الحياة الرافهة التي يحياها بينما يشقى ابن عمه وأصحابه في أسرهم لدى العدو:

يا ناعم الثوب كيف تبدله؟

ثيابنا الصوف ما نبذلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا
نحمل أقيادنا وننقلها
رايت في الضر أوجهاً كرمتم
فارق فيها الجمال أجملها
قد اثر الدهر في محاسنها
تعرفها تارة وتجهلها

وله قصيدة - أو مقطوعة من روائع الشعر الغنائي - يباهي بها الحمامة وقد سمعها من وراء الجدران في سجنه تهدل هديلها الشجي الكئيب برغم أن لها ملء الفضاء حرية ومدى انطلاق. قال في هذه المقطوعة:

ايضحك مأسور وتبكي طليقة
ويسكت محزون ويندب سال
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة
ولكنّ دمعني في الحوادث غال

وهكذا يبدو أن أبا فراس في هذا الشعر الذي أرسله من الأسر إنما دار على المعاني التي تنقر أوتار القلب وتثير الشجن، وتناجي شعور الشفقة. ومع ذلك فله التماعات خرج فيها على هذا كله فتناول ابن عمه بالتوبيخ الشديد لإهماله حقه وحق صاحبه ممن وقعوا في الأسر. مثل قوله:

أنت سماء ونحن انجمها

أنت بلاد ونحن أجبلها

أنت سحاب ونحن وابله

أنت يمين ونحن أنملها

وإننا لنجد في هذه المعاني من نفح الرجولة وقوة المحاسبة، ما لا نجده في سائر شعر أبي فراس. فمن عسى يكون سيف الدولة أو غيره من الحكام إذا هو فرط في حقوق رجاله وتخلى عما يجب لهم عليه؟ ومثل هذا المعنى كان ينبغي لأبي فراس أن يكثر منه وأن يتوسع فيه خلال روميته، أو قصائده التي نظمها في أسره وسجنه لدى البيزنطيين.

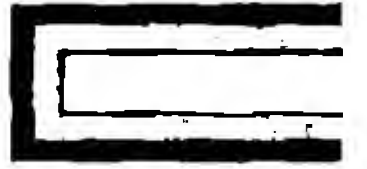
ويضحك الصافي فجأة ويقول لي بلهجة الأمر: كيف يمكننا ونحن نتحدث عن شعراء السجون إغفال شعر صاحبك الشاعر البائس عبد الحميد الديب الذي أمضيت من عمرك سنوات وأنت تجمع شعره، وتلممه من أفواه الحفاظ، فبالله عليك، بل أستحلفك بالله أن تسارع إلى إصدار دراستك عن هذا الشاعر. ثم، ما هي حكاية الديب في السجن؟ قلت:

لقد سجن الديب أكثر من مرة بسبب طول لسانه، وقد كان من بين الخليط الذي صاحبه الديب في سجنه، سجين أعمى، قد ضاق بالسجن، وبرم بالقيد، فلم يخضع كغيره للنظام المتبع هناك، وللحراس الغلاظ (أساليبهم الخاصة) في علاج مثل هذا الأمر، فقد ألحقوا العنت الشديد بهذا الأعمى، وأذاقوه مرَّ العذاب، وكان لهذا التنكيل الشديد أثره القوي في الشاعر العطوف قد مسَّ منه الشغاف، وحرك فيه العطف والإشفاق، وهو يتوجه إلى الأعمى

بقوله:

سجنوا عليك الكون، أم سجنوكا
لو انصفوا في ظلمهم قتلوكا!
تخذوا عذابك، أو نعيمك شهوة
وتقاسموك، كأنهم خلقوكا!
نم يا ضير، ففي عماك سعادة
ألا ترى عيناك من ظلموكا
ألا ترى أثر الطفاة وجورهم
عرضا ذبيحاً، أو دماً مسفوكا
ألا ترى الدنيا شخوص رواية
ضلت.. وضلوا شرعة وسلوكا
صادوك، فاتخذوك لعبة ملجأ
كم عذبوك به وكم ضربوكا
لم يرحموك على عماك، كأنهم
حسبوا العذاب على العمى يهنكا
في (الغرب) كل اللاجئين تخالهم
بين النعيم المستقر ملوكا
وهم بمصر معذبون أذلة
ملكوا من الرق المهين صكوكا
يحيون في ظل الأسار وضيقه
بأشد من عيش السجون حلوكا
ثاروا وثاروا والحكومة لم تزد
إلا ظنونا حولهم وشكوكا
وهم كباقي الشعب في بأسائه
ظل الحنوّ به غدا متروكا

الصافي النجفي والسجن



قبل عرض ما نقلته عن الصافي من شعره الذي نظمه وهو في سجنه، لابد من وقفة هادئة أمام هذا الشعر الذي رواه شاعر واحد، معاصر، خلال ثلاثة وأربعين يوماً تمرس فيها بأفات السجن - وكدت أقول بوحى السجن.

كان ذلك عام ١٩٤١ والحرب قائمة على قدم وساق بين الحلفاء والمحور. ويعتقل الشاعر، أما التهمة الرسمية التي كان بها اعتقاله فإنها (شبهة النازية) مع العلم أن معدن الصافي النفسي كان أبعد شيء عن معدن النازية، وهنا نجد الشاعر وقد اشتدت وطأة الحرب في الجولة الأولى على المستعمرين العريقين فلوحوا بالحرية للشعوب المستضعفة، كيف يروعه هذا النفاق، نفاق الاستعمار العجوز في أزمته فينشد:

منحونا حرية حين مدّت

نحو أعناقهم يد الجزار

روى الصافي في شعره داخل السجن قصة نفسه وما عرض في هذه الأيام الثلاثة والأربعين التي قضاها بين الجدران الموحشة رواية واقعية تتشح فيها الحقائق بسربال الخيال ويمكن تقسيمها على قصرها - ثلاثة فصول: يدور أولها على السبب الأصيل لدخول الشاعر السجن (وهنا يدرك الشاعر أن مشكلته من مشكلة قومه)، ويتعلق ثاني فصولها بحياته في السجن، ثم بسجنه في المستشفى بعد مرضه، وأما ثالثها فأبيات أرسلها في وداع السجن.

لنصغ إلى الشاعر يشرح لنا حكاية المفاوضات التي يصح أن نسميها (مفاوضات الدول الأربع) في سبيل الإفراج عنه:

حكومة لبنان قد راجعت

فرنسا لفكي فلم تسطع

وراحت فرنسا إلى الإنكليز

تراجعهم، جلّ من مرجع

وقد راجع الإنكليز العراق
واليوم بالأمر لم يصدع
فقلت: أعجبوا أيها السامعون،
ويا أيها الخلق قولوا معي
امن قوّتي صرت أم ضعفهم
خطيراً على دول أربع؟
فهذا من أوجع السخر الذي انطوى على الجدّ، وناهيك
بالاستفهام التهكمي الذي يقبل مفاجئاً في خاتمة الأبيات!
ثم يقول:

رمونا كالبضائع في سجون
وعافونا ولم يبدوا اكتراثا
رمونا في السجون بلا أثاث
فأصبحنا لسجنهم أثاثا!

ويقول ساخراً:

حسبت لطول السجن أني في قبر
فإن يخرجوني منه أمنت بالحشر
والمتعة الثانية التي أنت واجدها في شعره هذا دقة الوصف،
وغرابة التخيل. خذ مثلاً قصيدته (غرفة أم صندوق)، وتأمل ذلك
التصوير الباهر للغرفة الضيقة وسقفها الهابط.

تبكي بعين حالها
ودمعها قد استتر
كادت من الغبار أن
تفقد عيناها البصرا

إن شعر الصافي في السجن يعتبر من أجود ما قيل في الأدب
العربي عن حياة السجون.

البست أشعاري لباسي ساذجاً
كي لا اخادع باللباس الرائي

لم استطع سبق الوري بزخارف
فسبقتهم ببساطتي الحسناء

تكسير الأصنام
اهلاً بسجني لشهر أو لأعوام
فإنما يوم سجني تاج أيامي
قضيت حراً، حقوق النفس كاملة
واليوم في السجن اقضي حق اقوامي
أن يسجنوني فجرمي يا له شرفاً
أني أحارب قوماً اهل إجرام
محمد كسر الأصنام شامخة
من لي بتكسير «لوردات» كأصنام
يكفيهم حطة أن ليس يتبعهم
منا سوى كل منقط ونمام
يا دولة يتساوى في نذالته
جندبها القدم في مندوبها السامي

غرفة السجن

سجنوني في غرفة قد تعرت
فكأنني سجننت وسط القفار
جاعلاً من ترابها لي فراشاً
وغطاء يلفني من غبار
ثم زادوا على الغبار غطاءً
من نسيج مضعضع منهار
فإذا نمت يكتسي منه وجهي
بغريب الأصواف والأوبار
فتراني في الصبح أمضغ شعراً
وتراباً برغم حلقي سار

فكأنني أكلت نصف فراشي
وكأنني شربت نصف دثاري
وكأنني والصوف كل وجهي
نوع وحشٍ ما مر بالأفكار
طاب المرض

ضاق بي السجن فقلت هل مرض
ينقذني من شر سجن قد أمض
لا غرو أن يهوى السجين مرضاً
فمن رأى الموت حلاً له المرض
لقد توفقت

سجنت وقد مرّت ثلاثون حجة
من العمر فيها للسجون تشوقت
سعى دعبل للسجن طول حياته^(١)
فخاب، وفي المسعى لسجني توفقت
قبر في الجو

سجنوني في غرفة قد تعالت
وأطلت على فسيح الفضاء
هي سجن وإن تعالت فسجني
قفص لي معلق في الهواء
قبري السجن صار، والقبر قبر
حفروه في الأرض أو في السماء

(١) إشارة إلى كلمة دعبل المشهورة. لقد مرت عليّ أربعون سنة وأنا أحمل خشبتي فلا أجد من يصلبني عليها.

وداع الحرية

من كوة السجن القي
نفسى بدون تـوان
أودع العيش حراً
ولو لبضع ثوان

المشكلة العظمى!

قال الناظم هذه القطعة عندما اشتد عليه المرض في السجن
وكان الإنكليز يعلّلونه كل يوم بأنهم أبرقوا إلى حكومة العراق
يسألونها رأيها فيه. وقد مرّ عليه سبعة وعشرون يوماً وهو يستغيث
من الداء وهم لا يسمحون بنقله إلى المستشفى. ولما اشتدت عليه
وطأة الداء أنشأ هذه القطعة:

سجنت وقد أصبحت سلوتي
من السقم، عدّي للأضلع
أعالج بالصبر برح السقام
ولكن علاجي لم ينجع
أتاني الطبيب وولّى سدى
وداح الشفيع فلم يشفع
وكم قيل مدد مدى الاصطبار
ومهما عراك فلا تجزع
وكم ذا أمّد مدى الاصطبار
فإن زدت في مدّه يُقطع
ولما بكى ساجني رحمة
أجابوا التشفع للأدمع
ولكنهم صادفوا عقدة
بأمرّي تعيي حجي الألمي
حكومة لبنان قد راجعت
فرنسا لفكي فلم تسطع

وداحت فرنسا إلى الإنكليز
تراجعهم جل من مرجع
وقد راجع الإنكليز العراق
ولليوم بالامر لم يُصدع
فقلت اعجبوا أيها السامعون
ويا أيها الخلق قولوا معي
أمن قوتي صرت أم ضعفهم
خطيراً على دول أربع؟؟
وعندما أطلق سراحه علم أن الإفراج عنه كان بمساعي حكومة
العراق في عهد معالي صالح جبر الذي كان وزيراً للداخلية ووكيلاً
للخارجية. كما علم أن الإنكليز لم يراجعوا العراق بشأنه بتاتاً
ولكن حكومة العراق هي التي ضغطت على الإنكليز حتى أطلقوا
سراحه فلها منه الشكر والعذر.

سير على كل حال
اليوم رُخصت بالصعود إلى
السطح وعودي للسجن تسهيلاً
الحمد لله قد سعدت بأن
أسير عمقاً إن لم أسر طولا
من البحر أو «البحري»؟
سجنت وكم في السجن مثلي من حرّ
يقابلنا السجنان بالنظر الشرد
وأشرفت من سجنني على البحر قائلاً
من البحر يأتينا الخلاص أو البحري^(١)

(١) يشير الشاعر إلى صديقه الأستاذ يونس بحري الذي كان ينعش آمال القوميين العرب
بإذاعاته من برلين.

القبر مشحون!

لقد حاول السجّانون وضع الشاعر في غرفة ضيقة مزدحمة هي
قفص حقيقي على سطح إدارة الأمن العام الإفرنسية، ولكن لحسن
الحظ كانت الغرفة مزدحمة بالمساجين فلم يكن له متسع فيها
فاضطروا إلى وضعه في غرفة أخف منها بلاء وأقل سكاناً فقال:

راموا دخولي بسجنٍ كان يخنقني
فعاقني عنه رهط فيه مسجون
كانوا يريدون لي دفناً فأنقذني
من محنة الدفن أن القبر مشحون

إما تاج وإما سجن؟

سجنت وقبلي في العلي سجنوا أخي
وأمل في العلياء أن يسجنوا الابنا
إذا لم نورث تاج مجد وسؤدد
لأبنائنا طراً نورثهم سجناً^(١)

العزم والياس

إننا في سوى العلي ما رغبتنا
نملا الكون رهبة إن غضبتنا

(١) يشير الشاعر إلى سجن أخيه المرحوم السيد محمد رضا الصافي في ثورة العراق الأولى سنة ١٩١٩ تلك الثورة التي انتهت بتتويج فيصل الأول ملكاً على العراق، وقد فر الناظم آنذاك مع صديقه المرحوم معالي سعد صالح رئيس حزب الأحرار حتى بلغا حدود إيران فاتجه المرحوم سعد صالح إلى العمارة ومنها ذهب إلى الكويت ثم عاد إلى العراق أما الشاعر فقد ذهب إلى إيران وأقام في طهران مدة ثماني سنوات وبعد وصوله إلى طهران علم باعتقال السلطات الإنكليزية لأخيه وبعد أن قضى أخوه في السجن خمسة أشهر وقد وضع الإنكليز المشتقة أمامه تهديداً له لأنه جعل بيته مركزاً لمؤامرات الثورة أطلقوا سراحه وقد نظم خمسة أبيات في السجن يخاطب بها أحد الزعماء وقد زاره فيه وبعد خروجه أرسل الأبيات الخمسة إلى أخيه الشاعر وطلب منه تخميسها فخمسها في حينها وأعادها إليه فنشرها في مجلة لغة العرب للمرحوم العلامة أنستاس الكرمللي وما هو ذا الأصل والتخميس.

ما جزعنا للسجن يوم غلبنا
«إن من رام مثلما قد طلبنا»
«لا يبالي إن سيق للسجن سوقاً»
نحن قوم عن العلى ما قصرنا
حيثما دار كوكب العز درنا
وإذا جار حادث الدهر جرننا
«رخصت عندنا النفوس فثرنا»
«نطلب العز والعلی لا لنبقى»
قد خلقنا دون الوردی احرارا
وامتلكنا التيجان والأمصارا
وجعلنا لنا المعالي شعارا
«ولقد سامنا العدو احتقارا»
«فرأنا نستسبق الموت سبقا»
إن ذلی موتی وعزی حیاتی
ما انثنت للعدو يوماً قناتی
انا فرع من دوحة المكرمات
«أنا من اسرة كرام أباء»
«لا يرون الحياة في الذل أبقي»
انا لما أسرت لم أبدي ضعفاً
لا ولم أرج من عدوي عطفاً
ولقد قلت والردی بی حفاً
«شرع أن يكون موتی حتفاً»
«او اراني يكون موتی شنقا»

سجن وانتظار!

سجنوني شهراً بأقبح دار
جمعت جحفاً من الأکدار

ثم قالوا هذا محل انتظار
ليس سجنًا، فالسجن في غير دار
قلت في الانتظار سجن، فسجني
يا لبؤسي مضاعف بانتظار

أثاث السجن!

رمونا كالبضائع في سجون
وعافونا ولم يُبدوا اكتراثا
رمونا في السجون بلا أثاث
فأصبحنا لسجنهم أثاثا

الظلام المنير!

أرى السجن مهما اسود أفقاً كمنجم
حوى من بديع الماس مجلى النواظر
بكى صاحبي من ليل سجن وسرّني
بداجي ظلام السجن لمع الجواهر

العلاج بالكَي!

حسبت لطول السجن أني في قبر
فإن يخرجوني منه أمنت بالحشر
فكم وعدوني بالخروج ولم تزل
عيوني مع الموتى إلى موعد النشر
من العمر لا يُحسبن أيام محبسي
وإن كان منها اليوم أطول من عمر
أموت وأحيا في يد الموت والرجا
فأخرج من قبر وأدخل في قبر
يجدّد لي الآمال حارس محبسي
فيوقظ لي الآلام من حيث لا يدري

وكم قال لي صبراً على السجن ضيقاً
وكيف اضطبار الجالس على الجمر
من اليأس داوى الناس بالكى داءهم
كذاك يداويني ذوو السجن بالصبر

سجين وطلق

قلل السقم من مسافة سيري
وأتى السجن لي فصارت أقلا
غير أنني وإن سجنت ففكري
سائح في الوجود والنفس جذلي
وإذا شئت سحت في النفس دهرأ
طائفاً ثم عالماً مستقلاً
أن يفتني كونٌ فلي من خيالي
ألف كون يسمو على الكون فضلاً
لا تضيق السجون بالفكر رحباً
والفضا ضيق بمن ضاق عقلاً
إن كل الأغلال في يد حرّ
لا تساوي في ميثاق الفكر غلاً
فكري الحر أودع السجن جسمي
واعترازي قد كلف النفس ذلاً

فندق السجن!

سجنت وطال بي سجني وكم من
سجين جاءني يوماً وولى
كأنني رب نزل صرت القى
من السجناء أصحاباً وأهلاً
أودع في الضحى أهلاً كراماً
وادعو في المساء أهلاً وسهلاً

واضحى الرفق بالسجناء دأبي
وتسليتي لهم همماً وشغلاً
فيا ضيف السجون كرمت ضيفاً
ويا نزل السجون قبحت نزلاً
وكم يوم نسيت السجن فيه
فذكرني به ضيف أطلا
طلبت مسلياً منه لهمي
فلما أن رأى همي تسلى
ويوم كنت مسروراً بسجني
أرى السجنان فيه أخاً وخلاً
أتاني مشفقاً فبكى لما بي
فأبكاني فرحت أقول مهلاً
بربك لا تذكرني جروحي
فذكر الداء يُنكس من أبلاً
ألفت السجن حتى صار بيتي
وصارت بالخطوب النفس جذلي
كطيرٍ عاش في الأقفاص رغداً
فلا تذكر له روضاً وظلاً
ويوم كنت في سجني وحيداً
فلم أحمل من السجناء ثقلاً
فقلت بحمد ربي صرت وحدي
أعيش ولو بسجني، مستقلاً

الجرم الشريف

حبست وضاق الحبس بي حين زُج بي
إلى غرفة ظلماء محكمة السد
فقلت علام الحبس لا أنا سارق
ولا أثم عمداً ولا دون ما عمد

فجاء دنِّي باع عز بلاده
 ليشتري النزر الخسيس من الرغد
 أتى لابساً تحت السواد من الدجى
 سواداً على قلب، سواداً على جلد
 جرى مسرعاً ينساب نحوي مباغتاً
 كصل بدا من فوهة الحجر الصلد
 وراح يصب السم من فيه ناعماً
 على أذن تستقبل السم كالشهد
 مضى شارحاً ذنبي، إذ الذنب أنني
 خدمت بلادي؛ قلت ويحك من وغد
 فإنك قد البستني تاج سودد
 وملكنتي عرش الفخار بلا قصد
 فيا لك من نذل كريم تجود لي
 بتاج العلى يزهو، وقد عشت تستجدي
 ولما رأيت الذنب خدمة موطني
 حلا السجن حتى خلته جنة الخلد

إعلان الحرب!

خسئت إنكلترا والله
 أعمى مقلتيها
 قبرها في كل أرض
 حفرته بيديها
 سجننتني دون ذنب
 غير لعني أبويها
 أمنت حربي، وسجنني
 يعلن الحرب عليها

موت المعتدي!

ولقد سجننت بكف أجبن أمة
بالرجل تركض للممات وباليدين
ما رمت من سجنني الخروج مسارعاً
إلا لأنظر كيف موت المعتدي

* * *

غرنا بالسراب شر دعاة
حين قالوا، الإنكليز عدول
قلت ليت المغول ترجع يوماً
لترى ما جنته هذي المغول!

* * *

يصول الإنكليز على ضعيف
ولا يبدون للخصم العنيف
هم المكروب في جسم البرايا
يفتش كي يحط على ضعيف

على أن لا يقال له سجن!

سجننت بقصر يشبه الخلد، دونه
مناظر جاءت حسبما يشتهي الفن
فأكل وشرب وارتخاء وكل ذا
جميل على أن لا يقال له، سجن

الآن طاب الشنق!

حبست ولم أعلم بذنبي فأصبحت
لي الأرض في ضيق وضاق بي الأفق
ولما علمت الذنب خدمة موطني
حلا السجن في عيني وطاب لي الشنق

العقاب الضعيف!

حُبِسْتُ فَقَصَّ الْحَبْسُ مِنِّي قَوَادِمًا
وَأَجْنَحَةً كَانَتْ تَرْفُ رَفِيفًا
وَأَثْقَلَ حَبْسِي كَاهِلِي فَكَأَنَّنِي
تَحَمَّلْتُ طَوْدًا لِلسَّمَاءِ مَنِيفًا
وَلَمَّا عَلِمْتُ الْجُرْمَ خَدَمَةً مَوْطِنِي
رَأَيْتُ كَاهِلِي حَمَلَ الْجِبَالَ خَفِيفًا
وَقُلْتُ عِقَابُ الْحَبْسِ دُونَ جَرِيمَتِي
فَجُرْمِي يَرَى هَذَا الْعِقَابُ طَفِيفًا
وَقَدْ سَاءَ مِنِّي ضَعْفُ الْعِقَابِ لِأَنَّنِي
تَخِيلْتُ أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ ضَعِيفًا

موسى وفرعون!

قَدْ ضَاقَ بِي السَّجْنُ لَمَّا جُنَّتْهُ وَبَدَتْ
لِي الْمَتَاعِبُ أَشْكَالًا وَالرَّوَانَا
وَمَرَّ عَهْدُ فَصَارَ السَّجْنُ لِي وَطَنًا
أَرَى بِهِ مِنْ وُلاَةِ السَّجْنِ إِخْوَانَا
وَجَاءَ وَقْتُ فَأُولُونِي مَقَالِدَهُ
إِذَا السَّجَّينَ بِأَمْرِي كَانَ مِنْ كَانَا
فَقُلْتُ اللَّهُ دَهْرِي فِي تَصَرُّفِهِ
قَدْ طَالَ سَجْنِي حَتَّى صَرْتُ سَجَانَا
أَنَا سَجَّينَ وَسَجَّانَ فَتَشْهَدُ بِي
عِيسَى وَمُوسَى وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَا

قاعدة السجن!

خَلَا السَّجْنُ هَذَا الْيَوْمَ مِنْ كُلِّ سَاكِنٍ
سِوَايَ كَأَنِّي مِنْهُ أَسْ بِنَاءٍ

فجاء غلام السجن بيدي تعجباً
ويبقي من السجّان كشف بلائي
وقال له كل المساجين سرّحوا
فقيم نرى هذا رهين ثواء
فقال له السجنان هذا الذي ترى
أبونا، فأورى شعلة بدمائي
فقلت على رغم المروءة والعلّي
أكون أبا السجّان والسجناء

غرفة نوم أم طعام!

أقمت في السجن ويا
بئس السجون من مقر
في غرفة واطئة
تحب في الضيف القصر
يسير فيها راكعاً
كل امرء فيها خطر
فهي لأقزام بني
الحيوان لا بني البشر
يمشي على أربعة
إذا بها الطويل مرّ
كان من يدخلها
يندس في جوف الحفر
ومن بدا منها تخا
له من القبر ظهر
كأنما السقف لضم
أرضها قد انحدر
فسقفها والأرض شطران
تعالى من شطر

وسقفها غطاء من
نام وتاج من عبر
ينام سقفها على
من نام فيها واستقر
فسقفها الكابوس فو
ق الصدر أو طود حجر
تُضايق الجالس فيها
إن تمطى أو زفر
إن شخر الضيف بها
تخال سقفها انفجر
فهي كصندوق بضاً
عة ونحن المدُّخر
ضيقة ضاق بها
الفكر كما ضاق النظر
وجار ضبّ هذه
أم قبر جنٍ محتقر
كم رمت منها أن أفر
وهل من القبر مفر
فهي سواء والردى
ورودها بلا صدر
دار انتحار هذه
كم أمل فيها انتحر
قد مرّ لي شهر بها
كان من الموت أمر
وشننتني^(١) تنظر لي
تسألني متى السفر

(١) الحقيبة.

تشكو إلي، مثلما
أشكو أنا لها الضجر
ليس الغبار فوقها
من سفر بل من حضر
قد جلست في جانب
الباب جلوس المنتظر
مسجونةً مثلي ولا
ذنب سوى ذنب القدر
قد سلبوا جوازها
منها فما لها ممرٌ
طولَ النهار لا نزا
ل ن تبادل النظر
أخالها تبكي وإن
لم أرَ دمعها انهمر
تبكي بعين حالها
ودمعها قد استتر
كادت من الغبار أن
تفقد عيناها البصر
رمت صوالج القدر
بنا كأننا أكر
فهل تعيد قذفنا
إلى أماكنٍ آخر
تجدد اللعب فتر
مينا ولو إلى سقر

نصف مسلم!

أحارب جنس الإنكليز لأنني
وقفت على نصر الحقيقة مخدمي

أحاربهم حربي لكل رذيلة
إلى كل شيطان، إلى كل أرقم
أخاف إذا ماتوا، تموت أبالسُّ
فأبقى بلا لعني لهم، نصف مسلم!
تحاربهم روعي وكفي ومنطقي
وإن هم نورا قتلي يحاربهم دمي

يعشن يتامى!

وما كنت أخشى أن يفاجئني الردى
فإني حمام لا أخاف حماما
ولكنني أخشى إذا «الطبع» لم يعمل
يتيمات أشعاري يعشن يتامى
ولا أشرف الشاعر من شدة المرض على الخطر نقل إلى
مستشفى سان جورج حيث رأى من العناية به ما يذكره دائماً
بالشكر وكان يبدل الشرطي المكلف بحراسته في كل ست ساعات
بحارس جديد فقال يصف الرقابة عليه في المستشفى:

لا سلام ولا كلام!

ادخلني السجن في مصح
جميع أربابه كرام
لكنني قد منعت فيه
من أن يحينني الأنام
يشير طرفي لمن يُحيي
أن لا سلام ولا كلام
ولا التفات ولا انعطاف
ولا لحاظ ولا ابتسام
منبوذ قوم الهنود أحكي
تقربي للورى حرام

أحمد الصابي النجفي

أقيم في الباب لي «بليس»
كي لا يرى مني انهزام
لحافظه كلها سباب
ووجهه كله خصام
ملازم لي بلا وداد
كأنه دائي العقام
فقلت ما ذاك لي مصح
هذا هو السجن والسلام

إعلان على بابي!
السجن امرض لي جسمي فصيرني
إلى مصح يداوي برح أوصابي
نسيت سجنني وبلواه فذكّرني
به على الباب شرطي كبواب
أضحى يوجه لي الانظار عابرة
كأنما هو إعلان على بابي
وأصبحت نظرات الناس تشهد لي
أني سجين فتشجيني على ما بي
يرنون لي بعيون ملؤها هلع
كأنتني رب إجرام وإرهاب
وإن نظرت إليهم هرولوا فرعاً
كأنما أنا ليث، محبسي غابي

المنبر الخالد!

سجنوني دونما ذنب سوى
أنتي سامي المنى حر عزيز
لا يضير السجن مثلي ان يكن
موطني يصبح في حرز حريز

ولئن أشنق تكن مشنقتي
منبراً يعلن رجم الإنكليز

ملحمة السجن
أو ألواح وأشباح!
أرى في غربة الإنسان سجناً
فكيف بسجن إنسان غريب
يزور رهين سجن أهل قربي
ولكني السجين بلا قريب
أبشر عند فتح الباب نفسي
بأن ستفوز بالفتح القريب^(١)
فمن لي أن أرى يأساً مريحاً
يخلصني من الأمل الكذوب
سأقتل حي آمالي سريعاً
وأرجع منه ذا سيف خضيب
فإن لخادع الآمال عقبى
تزيد مرارة القلب الكئيب
وإن لوامع الآمال أل
يزيد المحل في القفر الجديب
سيمسكني وقار اليأس كيلاً
أراني لعبة الأمل اللعوب
وأغضي عن سنا الآمال طرفي
وأدخل ظلمة اليأس الرهيب
فإن أشعة الآمال تحكي
نصلاً وأخزات للقلوب

(١) ليس هنا تكرار للقافية فإن الأول بمعنى قرابة الرحم والثانية مقابل البعيد.

تَقَطَّبَ لي السَّما بالسَّحب وجهاً
 كان لم يكف دنياها قطروبي
 وتبسم لي البروق بها وكم لي
 بسحب النفس من برق خلوب
 سحائب بارقات بالاماني
 ولكن باخلات بالسكوب
 تسامرني همومي في الدياجي
 ويطربني فؤادي بالوجيب
 فكم في السجن من ليل غضوب
 وكم في السجن من يوم عصيب
 وزاد عليّ ضيق السجن أني
 حُرمت به من الخل الأريب
 فادعو الله تعجلاً بفك
 لسجني أو بسجن فتى لبيب
 تمنيت الزيارة من قريب
 وإن تك زورة الأجل القريب

خدام السجن!

وخدام قساة أغبياء
 ضعاف العقل أموات القلوب
 أشاهد منهم الأطماع حولي
 تدور تكاد تأكل لي جيوبي
 كأنني ساكن قبراً أغذي
 به الحشرات من شتى الضروب
 كأن عيونهم حشرات نهش
 طلعت عليّ من خلل الثقوب

الجواسيس!

افتش لا أرى حولي حبيباً
وكم شاهدت حولي من رقيب
أجيل بهم عيون أخي وثوق
فألقى منهم نظر المريب
هم الخلان لي لا عن ودا
هم الأعداء لي لا عن ذنوب
نفوس قد ربين على عيوب
فما يحسسن بالأمر المعيب
ومن ينمى إلى عيب تحزى
عيوب الناس يبحث عن نسيب
وكم قد غرّني مرأى نجيب
بهم فنكبت بالمرأى النجيب
فما في برقهم إلا عماء
وما في سحبهم غير القطوب
سأبعد عنهم الآمال حتى
تجيء إليّ بالفريق السكوب

ليل السجن!

نهاري من عبوس السجن ليل
وليلي ألف ليل من كربى
إذا مالت ذكاء إلى غروب
أرى نفسي تميل إلى الغروب
افتش في ظلامي عن رجاء
فأدخل في ظلام من غيوب
وأبحث فيه عن حدس مصيب
فأعثر منه بالسهم المصيب

ألا يا ليل ليتك لم تسارع
 وليتك ضعت في أقصى الدروب
 وليتك قد عثرت بلا مُقيل
 وليتك قد دعوت بلا مجيب
 وليتك إذ عثرت، عراك كسر
 برجلك لم يصادف من طيب
 تسارع في خطاك إلى شوقاً
 مسارعة المحب إلى الحبيب
 وتلقي كل رحلك فوق صدري
 وتجتثم فوق قلبي كالخطوب
 تجد السير منذ الصبح نحوي
 فتهجم هجمة الأسد الغضوب
 لبست من النهار الغض ثوباً
 لتخفى عن عيون المستريب
 أراك وأنت في لونين تبدو
 تسير من المغيب إلى المغيب
 كأنك حية رقطاء تزهو
 بثوب دجي وثوب ضحى قشيب
 تبدل ثوبها في كل ليل
 لتجلو حسننها عند الحبيب
 ألا يا ليل كم لك من شباب
 وكم لك كل صبح من مشيب
 تشيب بشييك الأكوان، لكن
 شبابك لا يعيد شباب شيب
 أقول بكل صبح سوف تقنى
 متى أبصرت فحمك في لهيب
 إذا بالفحم ينضب باشتعال
 وما لمعين فحمك من نضوب

ستبقى بعد أن تفنى شمس
إلى ما شاء علام الغيوب
ألا يا ليل كم لك من خطوب
وكم لك في الجوانح من ندوب
أتلِس مثلَ رهبان، مسوحاً
وقلبك قلب شيطان رهيب
فكم وسعت ثيابك من أفاعي
هموم مقلقات بالدبيب
وكم ضمت عقارب من وشاة
بالسنة لوادغ للقلوب
وكم اخفت شرواً كالضواري
محددة المخالب والنيوب
فلو خلعوا ثيابك عنك أبدت
إلينا كل أنواع العيوب
يلوح إهابك الضافي، ظلاماً
ويخفي شكل حيوان عجيب
فيا لك شكل حيوان عجيب
تضمّن ألف حيوان غريب
كأن الليل جبار عظيم
أصيب بألف مكروب مهيب
وما المكروب فيه سوى هوام
وأساد ووحش فلأ وذيب
وإجرام وأحقاد تنزى
وأوهام ودمع نوى سكيب
وأحزان وإجرام ويأس
وذكرى عاشق وكرى سليب
وأشباح وأرواح وجن
ويوم مفزعات بالنعيب

أصيبَ بترككم الآفات لكن
 صحيحاً عاش ذا عود صليب
 أيا فيلاً، يمدّ بكل يوم
 على الأكوام خرطوم الغروب
 فيشرب كل نور ثم يُلقي
 مُجاجاً للذّجّة والخطوب
 أجبار الظلام لأنّك عبد
 وإن أوتيت سلطان الشعوب
 أرى حُرّ النهار يخاف من أن
 يراك لذاك يسرع بالهروب
 تنام على سواعدك البرايا
 فترضعهم بمسموم الحليب
 وتغمرهم بأحلام كذاب
 وتسقيهم من الرّيق المشوب
 تهددهم بصمتك وهو يحكي
 زئيراً صكّ أسمع القلوب
 وتطبق جفّنهم رعباً ليغفوا
 متى قابلت بالوجه الغضوب
 كأن الأفق شدّك رحت منه
 تكشر عن نجوم كالنيوب
 مرّ بيّ العالمين لأنّك باق
 وكم خنقت أكفك من ربيب
 ألا يا ليل حسبك ليل سجنني
 وحسبك عن كروبك لي كروبي
 كرهت القبر بعد الموت سجناً
 وعفت الليث في الوطن الخصيب
 فما أرضى ولو في الخلد حبساً
 ولو ما بين أزهار وطيب

أُحْبَسَ مَنْ يَحْرَمُ أَيَّ حَبْسٍ
وَكُلُّ مَنْهُ تَحْرِيرُ الشُّعُوبِ
أُحْبَسَ شَاعِرٌ حَرٌّ رَقِيقٌ
تَضَايَقُهُ النَّسَائِمُ بِالْهَبُوبِ
يَرَى مِنْ جَسَمِهِ سَجْنًا عَلَيْهِ
يَكَادُ يَهْمُ مِنْهُ بِالْوُثُوبِ
رَأَيْتُ السَّجْنَ مُجْتَمَعَ الرِّزَايَا
وَلَا كَالسَّجْنِ لِلرَّجُلِ الْأَدِيبِ
وَكَيْفَ يَطِيقُ ضَيْقَ السَّجْنِ حَرٌّ
يَضِيقُ بِهِ فُضَا الْكَوْنِ الرَّحِيبِ

رَهْنِ الْمَحْبُسِينَ!

رَهْنُ الْمَحْبُسِينَ ضَنْيٌ وَفَقْرٌ
وَأُحْبَسَ: جَلٌّ ذَلِكَ مِنْ نَصِيبِ
لَنْ أُسَجِّنَ فَمَا الْأَقْفَاصُ إِلَّا
لِلَيْثِ الْغَابِ أَوْ لِلْعَنْدَلِيبِ
أَلَا يَا بَلْبَلًا سَجْنُوكَ ظَلَمًا
فَنَحَتَ لِفَرْقَةِ الْغَصَنِ الرُّطِيبِ
كَلَانَا مِنْ تَأْلَمِهِ يَفْنَى
فَنَنْعَشُ صَاحِبَ الْقَلْبِ الطَّرِيبِ
لَقَدْ أَصَغَى الْخَلِيَّ إِلَى غَنَانَا
وَلَمْ يَسْمَعْ بِهِ نَغْمَ النُّحَيْبِ
وَلَوْ أَصَغَى لَنَغَمْتَنَا مَلِيًّا
لَذَابَ بِذَلِكَ النِّغْمِ الْمَذِيبِ
وَيَا لَيْثَ الشَّرِّ سَجْنُوكَ مَثَلِي
لَدُنْ خَافُوا وَثُوبَكَ أَوْ وَثُوبِي
لَنْ كَثُرَتْ لِلْهَيْجَاءِ نَابًا
فَأَقْلَامِي تَكْثُرُ لِلْحُرُوبِ

كلانا صاحباً صمت مهيب
كلانا صاحباً وجه رعب
أدب على الثرى ضعفاً ولكن
أرى الجبناء يقلقهم دبيبي
تُراع حلومهم لصدى عظام
ضئلات تقضض في جنوبي
اعبس للضنى فيخيف قوماً
عبوسي ثم يشحبهم شحوبي
فكيف بهم إذا سمعوا زئيري
وكيف إذا أكثر عن نيوبي
وهذه أبيات قالها عند خروجه من السجن:

إفراج كالسجن!

كنت أخشى في السجن إن تأت بشري
بفكأكلي أصب لها بالجنون
أطلقوني من بعد ما اعتدت سجنني
فكأنني مجدداً سجنوني

العقل كالجنون!

شكرت ولاية سجن أطلقوني
وقلت هم ذوو خير ودين
وعدت أصب فوق العقل غيظي
لأن العقل أصبح كالجنون
إطلاق السجين يُعد خيراً
ويُنسى شر إمساك السجين

الحرية إدام!

من بعد سجن أربعين يوماً
كأنهن سجن الف عام

أصبحت إن أكلت خبزى حافاً
جعلت من حرיתי إدامي
الوفاء!

رجعت إلى سجنى رجوعي إلى قبري
وفاء لذكرى البؤس فيه مدى شهر
وقلت لعل الميت إذ يحشرونه
يعود وفاء بالعهد إلى القبر

النجفي.. وديغول

هناك صفحة مطوية من حياة الصافي تكاد تكون غائبة عن
دارسي شعره وأدبه، وهي تأثره بتنكر الشعب الفرنسي لديغول في
آخر أيامه.

لقد حدث مرة أن عرّفته بمراسل مجلة (الباري ماتش) - جورج
أفيل - فقال له الصافي:

«..كنت أتابع بشغف كبير سيرة ديغول منذ أول الحرب العالمية
الثانية، وأعجب بتصرفاته بالرغم من أنني كنت أسير بالسياسة في
خط معاكس لخطه.. فأنا مع المحور وهو مع الحلفاء.. ولكني كنت
أشعر أنّ للرجل شخصية مستقلة ولم يكن تابعاً..

وقد تنبأت حينئذ بأن ذلك التصرف من قبل ديغول سيؤدي
حتماً إلى التفاهم مع العرب، ويمهد لإيجاد كتلة تقف بين الشرق
والغرب كما جرى ذلك فيما بعد.. حيث برزت على مسرح السياسة
العالمية دول عدم الانحياز.

وهكذا أخذت مكانة الرجل تزداد سموّاً في نفسي على مرّ الأيام،
إلى أن كانت المؤامرة اللثيمة الأخيرة التي أدّت إلى تخليه عن
الحكم، وجاءني بصورة عفوية الشطر الأول من مطلع قصيدة
أكملتها فيما بعد وهي:

(سقط السيف بعد طول القراع) ثم تتابعت أبياتها..

وأما ميزة القصيدة فيما أعتقد فهي أنها سلّطت أضواء على بعض أسرار عظمة ديفول.. تلك العظمة التي يؤمن بها كل شخص في العالم دون أن يستطيع شرح أسرار تلك العظمة.. وهذا أحد الأسباب التي جعلت الجنرال ديفول يتأثر بها، وييدي هذا الشعور النبيل نحوها في رسالته البليغة التي بعثها إلى الصافي جواباً على قصيدته وقال فيها:

«أشكرك الشكر الجزيل على شهادتك الأمانة التي تأثرت بها كثيراً!!»

ويقول الصافي معقّباً:

«إن تلك الأسرار التي أوضحتها القصيدة عن عظمة ديفول تشير إلى أنه وضع منهاجاً في السياسة الحكيمة العادلة أمام زعماء السياسة في العالم إذا أرادوا أن يكونوا منصفين وينصفهم العالم والتاريخ.. فلا حكم أصدق من شعور العالم، ولا قاضي أعدل من التاريخ».

بعد حديث الصافي إلى مراسل (الباري ماتش) اقترحت عليه ترجمة كل هذا إلى الفرنسية فوافق، فذهبت على الفور إلى مكتب الأستاذ جورج نقاش صاحب جريدة (الأوريان) ورويت له ما جرى فأقرّ عملية النشر، وطلب مني أن أقوم بهذا العمل على أن يعيد النظر بنفسه فيما كتبت ليصحح..

أعجب الأستاذ نقاش بما كتبت، وأجرى عليه قلمه وأمر أن تخصص له الصفحة الأدبية الأسبوعية التي كانت تصدر صباح يوم الخميس من كل أسبوع، وكتب بقلمه كلمة تقديرية عن الشاعر العربي أحمد الصافي النجفي.

كانت القصيدة بعنوان: (خذلان ديفول) أو (فشل فرنسا) وفيها يقول الصافي:

سقط السيف بعد طول القراع
وخلأ الساح من حكيم شجاع

فلتودّع حضارة الغرب نبلاً
ولتسلم قيادها للرعا
وليسدّها الظلام روح وعقل
بعد نكرانها لذاك الشعاع
أنت عرّفتنا السياسة صدقاً
بعد تعريفها لنا بالخداع
مثلاً كنت بيننا ورسولاً
لك نهج كالوحي، كالإبداع
ما تمسكت بالرئاسة قسراً
بعدما بايعتك دون امتناع
ولكم فزت بالرئاسة طوعاً
إن ينلها باقي الوردى بالصراع
عجباً قد ظهرت في عصر فوضى
فمحوت الظلام بالإشعاع
بك عهد الفرسان في الغرب ولّى
جاء عهد الخنوع، عهد الضياع
فارس القول، فارس الرأي، فذ
فارس السيف، والحجى، واليراع
أصبح اليوم للثعالب صوت
إذ خلا الغاب من زئير السباع
ليس بدعاً أن يخذلوك ضلالاً
كم شكوا الحق قلة الأتباع
ولئن تعزل فبهات تخفى
أنت ملء الابصار والأسماع
بطلاً كنت في اعتزال وحكم
لم تنزل في كليهما في ارتفاع
يسقط الحاكمون بالعزل إما
عُرفوا قبل حكمهم باتضاع

يرفع الحكم كل وغد وضيع
رفعته وضاعة الأوضاع
سوف تبقى ذكرى حضارة غرب
أن تسدّه حضارة الأطماع

بعد ذلك نشرت جريدة «الأوريان» القصيدة الثانية التي نظمها
الشاعر أحمد الصافي النجفي مترجمة إلى الفرنسية، وها هي كما
نشرت بالعربية في جريدة الأنوار:

مضى من غدا المثل الأعلى
بأقواله وصّى، بأفعاله دلا
لقد كان شمساً وانطوى اليوم نورها
ولم تر شمساً في السما مثلها قبلا
إذا ما حرمتنا اليوم أنوار شمسه
فإننا جميعاً نستقيء له ظلا
مضى لم يفاخر، أو يبشر بنفسه
وأفعاله كانت تضيع له الفضلا
مضى زاهداً بالحكم، والمجد، والعلی
فقد كان قديس السياسة، أو أعلى
وكم عاف حكماً، وانزوى مثل ناسك
ليملئ من الآداب أفضل ما يملئ
بكيت عليه حين مالي نسبة
له، غير نهج الحق، والغاية المثل
بقلبي قد أحسست شعراً بفقده
يروم انفجاراً، فانبرى دافقاً، سهلاً
لقد كانت الآمال معقودة به
فولّى، وما نرجوه من أمل ولّى
وقد كان في ركب السياسة هادياً
فغاب، وكل الركب من بعده ولّى

وكان أب الأخلاق قولاً، وسيرة
وقد مات، فالأخلاق من بعده ثكلى
لقد صار في كل النفوس ممثلاً
فأصبح من تمثاله المعتلي أعلا
وكان عظيماً، فاتحاً، غير سافك
من القتل لم يرهب، ولم يرهب القتل
وكان أديب القول، والفعل، والحجى
وكان مثال الحق، يعلو، ولا يعلى
أتى للدنا نجماً غريباً بنوره
وقد غاب لما لم يشاهد له مثلاً
وذي دمة الإخلاص تهدي لروحه
وما انهمرت إلا بأمثالها تتلى
فيا رب أدركنا بنجم مثيله
إذا ما ظلام الحكم في العالم استولى
لقد عشقت فيه الرئاسة كفوها
فكان لها أهلاً، وكانت له أهلاً
وقد ترك الدنيا تشيد بمجده
وأفعاله في كل مكرمة تتلى
بكته شعوب كان حرر رقها
ولم ترض عنه حين حررها، فصلا
ومن ينشر الإحسان يخضع له الورى
ولم يجدوا عند الخضوع له، ذلاً
كذا فليكن نهج الرئاسة واضحاً
كذا فليكن صعب الوصول لها، سهلاً
وكان مثال الفضل لكن مجسماً
نشاهد فيه العز والفضل والنبلا
وقد كان حراً، للتحرر ناشراً
ولم يك عبداً، يشتهي للورى غلاً

أحمد الصافي النجفي

وكان مثال العرب إذ حردوا الوردى
لأنهم الأحرار، في حكمهم قبلاً
مضى زاهداً بالمجد، حتى بموته
فأوصاهم ألا يقيموا له حفلاً
ولست براث شخصه اليوم في الوردى
ولكنني أرثي به المثل الأعلى



(ا)

- ابن ابي دؤاد انظر احمد بن ابي دؤاد
ابن زهير: ٢٦
ابن عباس، عباد: ٢٧
ابن المعتز، ابو العباس عباد بن محمد: ٦٧
ابن، يزيد بن زياد بن ربيعة: ٥٩
ابن هبيرة: ٦٢
ابو العتاهية، ابو اسحق اسماعيل بن
القاسم: ٢٦
ابو غنيمه، محمد صبحي: ٩
ابو فراس الحمداني: ٧٠، ٧١، ٧٢
ابو النصر، عمر: ٢١
احمد بن ابي داؤد: ٦٥
الاخشيدى، لؤلؤ: ٦٨
ابو الفرج الاصبهاني، علي بن الحسن: ٢٨
الاصفهانى، ابو الحسن: ٢٠
الاطرش، سلطان باشا: ١٠
الفيل، جورج: ١٠١
امين، احمد: ٢٤، ٢٠
انستاس، الكرملى: ٢٢
انوشروان، كسرى: ٥٦
الايوبى، صلاح الدين: ١٦

(ب)

- بابيل، نصح: ٩
الباخرزى، ابو الحسن: ٢٤
البارودى، فخري: ٩، ١٠، ١٢
الباسمى، رشيد: ٢٢
بالخير، عباد: ٥٠
بدوي الجبل (الشاعر): ١١
براون، ادوار: ٢٢
البرمكى، جحظة: ٢٨، ٢٩
البمقاني، وديع: ٢٩، ٢٠
بيوتز (الجنرال): ١١، ١٠

(ت)

تدين، محمد: ٢٤

(ث)

ثريا (الملكة): ١٠

(ج)

- الجابري، سعد الله: ١٠
الجارم، علي: ٢٤، ٢٠
جبر، صالح: ٧٩
الجزائري، سعيد: ٢٩
الجزائري، عبدالكريم: ٢١
الجندى، احمد: ٢٩

(ح)

- الحارث بن عوف، ابن ابي حارثة المربي: ٢٥
الحامض، عباس: ٢٩
الحاني، ناصر: ٤٥، ٤٦
الحريري، محمد: ٢٩
حسين، محمد: ١٩
الحسينى، امين (الحاج): ١٠
الحفار، لطفى: ١٠
الحكيم، حسين: ١٠
حمام، محمد مصطفى: ٩
حيدر، سعيد: ١٠
الحيدري، داوود: ٢٥

(خ)

- خان، امان الله (الملك): ١٠
الخراساني، ابو مسلم: ٦٢
الخطيب، حسام الدين: ٢٩
الخليلى، جعفر: ٤٦، ٤٦
الخورى، رنيف: ٩، ٤٧
الخيام، عمر: ١٦، ٢٧، ٢٠، ٣١، ٢٤، ٢٥

(د)

الديب، عبد الحميد: ٧٢
ديغول، شارل: ١٠١، ١٠٢

(ر)

رضا، محمد: ٢٢
روزن، فريدريك: ٢٣

(ز)

زعيتر، اكرم: ٥٠، ٥٢
زهير بن ابي سلمي: ٢٥
زياد بن ابيه: ٥٩
زياد بن معاوية انظر زياد بن ابيه
الزين، نزار: ٤٣، ٥٠

(س)

سقاء، باجه: ١١
سيف الدولة الحمداني، ابو الحسن علي بن
عبد الله: ٧٠، ٧٢
سليمان، شفيق: ١٠

(ش)

الشبيبي، محمد رضا: ٢١
الشهبندر، عبدالرحمن: ١٠

(ص)

الصافي، علي (السيد): ١٩
الصافي، محمد رضا: ٢٠
صالح، سعيد: ٢١، ٢٢

(ط)

الطهراني، آغا بزرگ: ١٩
جعفر الطيار، جعفر بن ابي طالب: ٦٢

(ع)

عارف (الرئيس): ٤٦
العائدي، عبدالكريم: ١٠
عبد الله الطالبي: ٦٢، ٦٣
العبيدي، المنذر: ٦٠
عبيد الله البكري، عبيد الله بن زياد: ٦٠، ٦١
عبيد الله بن زياد انظر عبيد الله البكري،
عبيد الله بن زياد
العثمان، عبداللطيف: ٤٩
العجيلي، عبدالسلام: ٢٩
عدي بن زيد، بن حماد بن زيد العبادي: ٥٦،
٥٨

علي بن ابي طالب (الإمام): ٦٢
علي بن الجهم، ابو الحسن علي بن الهدر:
٦٤، ٦٧

عمر بن الخطاب (ال خليفة): ٢٦، ٥٨
عيسى، سعد الدين: ٢٥
العيسي، يوسف: ٢٩

(ف)

فولتير: ٤٨

(ق)

القزويني، محمد خان: ٢٢
القوتلي، شكري: ١٠، ٤٩

(ك)

الكاتب، عاصم بن محمد: ٦٧
الكاظمي، محمد حسين (الشيخ): ١٩، ٢٠
الكرملي، انظر انستاس الكرملي
كيالي، حسيب: ٢٩
الكيلاني، رشيد عالي: ٢٥

(م)

المارديني، زهير: ١٣

فهرس الاعلام

النعمان (الملك): ٥٦

نقاش، جورج: ١٠٢

(هـ)

هرم بن ستان، بن ابي حارثة الحري: ٢٥

هنانو، ابراهيم: ١٠

(و)

ويلسون: ٢١

(ي)

اليافي، ابو الهدى: ١٠

يزيد بن مفرغ انظر، ابن مفرغ، يزيد بن

زياد بن ربيعة

المتنبي، ابو الطيب: ٦٧، ٦٩

المحاييري، صلاح الدين: ٢٩

مردم، جميل: ١٠

مسديه، صالح (الشيخ): ٩، ١٠

معاوية بن ابي سفيان (ال خليفة): ٥٩

المعري، ابو العلاء: ٢٣، ٢٤

المقتدر بالله، جعفر بن احمد المعتضد: ٦٧

(ن)

النجفي، احمد صافي: ٩ - ١٢، ١٦، ١٧

٢٧، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٤٠ - ٤٢، ٤٤، ٤٧

٤٩، ٥٠، ٥٢ - ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٥

٧٢، ٧٤، ٧٥، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤

الغسالية، عبدالعزيز (السيد) ١٩

أحمد الصافي النجفي

تطرح هذه الصفحات التي وضعها الأديب الصحافي زهير المارديني عن الشاعر أحمد الصافي النجفي إلى سد نقص في المكتبة العربية لما تضمنته من أخبار وصور وتكريات عن الشاعر. فهي قصة حياة شاعر قضى في الدنيا ثمانين عاما من التشرد فكان شاعرا فريدا في اصراره على طلب الحرية. له في ساحة الشعر صولات وجولات عرف السجين وذاق مرارة الحرمان ولوعة الاضطهاد لكنه ظل آمينا لفكرة الحرية التي وثقت حياته وشعره. ومجددا في الشعر، له فيه باع طويل.

تغطي هذه السيرة جوانب كثيرة مجهولة في حياة الشاعر وتضيف إلى القارئ العربي معلومات قيمة عنه بلغة شيقة مباشرة.